روايات عالمية للجيب

18

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

دوريان جراى

بقلم : أوسكار وايلد
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

المؤلف

اليوم نحاول الابتعاد قليلاً عن عالم المغامرة ، والأحداث المثيرة الصاعقة ، لندنو أكثر من عالم الأدب الرومانسي ، والذى هو درجة أكثر نضجًا فى درجات تذوقنا للأدب العالمى ..

أديب اليوم لا يمكن الكلام عنه إلا فى كتاب كامل .. ولعله من أكثر كتاب العالم الذين صدرت عن حياتهم دراسات كاملة .. وحياته بحر لا ينتهى من الصخب والقيل والقال ..

لكننا سنكون محددين مختصرين .. ألم يقل (ماكابيس) إنه « من الحمق أن تطيل فى المقدمة .. وتأتى القصة ذاتها قصيرة » ؟

ولد (أوسكار وايلد) فى ١٦ أكتوبر عام ١٨٥٤ فى (دبلن) .. الابن الثانى لسير (ويليام وايلد) ـ طبيب وجراح عيون فائق الشهرة ـ وأم كانت تحارب من أجل حرية (إيرلندا) بقلمها ..

وفى المدرسة ـ كعادة الأدباء ـ لم يبد (أوسكار) حماسًا للألعاب الصبيانية .. كان يؤثر الوحدة وقراءة الأدب الإغريقى والشعر ...

وكان لقراءاته هذه الفضل في أن يظفر - فيما بعد - بمنحة لجامعة (أوكسفورد) ، وظفر هناك بشعبية لابأس بها بسبب لماحيته وروحه المرحة .. وبدأت أشعاره تولد على صفحات المجلات الإيرلندية ..

وحين تخرج في (أوكسفورد) كان قد نال شهرة بآرائه الثورية التي تصدم أذواق السواد الأعظم من الناس ... ، وكانت ثيابه الزاهية منفرة الألوان تعكس هذا التحدي ..

سافر إلى الولايات المتحدة ليلقي بضع محاضرات ، ثم تزوج (كونستانسي لويد) وأنجب منها طفلين ، واضطرته المسئوليات إلى أن يعمل مراجعًا في مجلة (بول مول) ثم صار محررًا لمجلة (عالم المرأة) ..

كان هذا الوقت - عام ١٨٨٧ - هو الذي كتب فيه قصة (شبح كانترفيل) .. وبعد هذا بعام أصدر مجموعة من القصص الخيالية تحت عنوان (الأمير السعيد وقصص أخرى) .. تلا ذلك إصدار روايته الوحيدة (دوريان جراي) وهي القصة التي بين يديك الآن .. ، وقد قوبلت هذه القصة بهجوم عنيف في البداية ، واستخدمها مهاجموه كدليل إثبات ضده في محاكمة (كوينز بري) الشهيرة ..

وعلا نجم (وايلد) سريعًا ، وامتلأت الصحف بآرائه وأخباره .. وقدم مسرح (سانت جيمس) روايته (مروحة الليدي وندرمير) التي دشنت اسمه كأحد أهم كتاب المسرح الإنجليزي .. ولقد قدمت السينما المصرية .. ذات الرواية باسم (امرأتان) منذ عقدين من الزمان ..

شهد العام ١٨٩٥ ظهور أعماله (امرأة بلا أهمية) و (الزوج المثالي) وتحفته الخالدة (أهمية أن تكون جادًا) و (سالومي) ..

كان لهذه الشهرة دور في تبديل شخصية (وايلد) - أليس بشرًا ؟ - كأنما تحقيق الطموحات قد حرّر ميولاً مرضية ما في تكوينه .. وسرعان ما بدأ تدهور الرجل إلى نهايته ..

وتكفل أصحاب السوء بتسهيل طريق الرذيلة للرجل ، حتى قدم للمحاكمة فيما يعرف بـ (محاكمة كوينز بري) .. وحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة عامين ..

وفي السجن كتب إلى صديقه (ألفرد دوجلاس) خطابًا شهيرًا جدًا نشر فيما بعد باسم (من الأعماق) أو De profundis ..

ويغادر (وايلد) السجن فيترك البلاد إلى فرنسا .. ، ويمضى الوقت دون كتابة أعمال مهمة أخرى ، ثم يصيبه التهاب الأذن الوسطى الذى يؤدى به إلى الحمى الشوكية فى ديسمبر عام ١٩٠٠

ويلفظ أنفاسه الأخيرة فيدفن فى باريس .. فى مقبرة (بيرلاشيز) فى (مونمارتر) ..

يقول (ماكس بيربوم) : « كان الجمال موجوداً منذ دهر قبل عام ١٨٨٠ ، لكن (أوسكار وايلد) هو أول من رآه .. »

ويقول (وايلد) : « على الفنان أن يخلق أشياء جميلة .. لكن عليه ألا يضيف شيئاً من حياته الخاصة إليها .. »

لكننا سندرك من الصفحات التالية شخصية هذا الأديب العظيم المفعمة بالشاعرية والحساسية والقلق ..

د. أحمد خالد

- ١ -

كان المرسم يعبق برائحة الورود .. وحين تتحرك ريح الصيف الهينة بين أشجار الحديقة ؛ كانت روائح زهرة (الليلاك) تتسلل من الباب المفتوح ، ومعها عبق نباتات أكثر رقة وشفافية ..

وعلى المتكأ يجلس اللورد (هنرى وتون) يدخن كدأبه ما لا حصر له من لفافات التبغ ، يتأمل الزهور الرقيقة من وراء زجاج النافذة .. ويصغى لأزيز النحل الخافت وهو يفتش فى إصرار رتيب حول الأعشاب فى الحديقة ، ومن بعيد تبدو ضوضاء (لندن) لمسمعيه كنغمة يرددها معزف بعيد ..

وفى منتصف الغرفة - على حامل منتصب - صورة مرسومة بالحجم الطبيعى لشاب شديد الوسامة إلى حد غير عادى .. وأمامها جلس الرسام ذاته (باسيل هولورد) الذى أثار اختفاؤه المفاجئ منذ أعوام ضوضاء عامة .. وجلب شائعات كثيرة ..

ابتسم الفنان فى رضا وهو يتأمل عمله المتقن .. وفجأة أغمض عينيه .. ووضع أنامله على جفنيه كأنما ليسجن حلماً غريباً فى ذهنه يخشى أن يصحو ..

قال لورد (هنرى) :

- « هذا خير عمل لك يا (باسيل) .. أفضل ما قمت به .. يجب أن ترسله إلى (جروزفينور) في العالم القادم .. إن الأكاديمية ها هنا غير مناسبة .. كلما ذهبت هناك وجدت إما أناسًا كثيرين فلا أستطيع رؤية اللوحات ـ وهذا سيئ ـ أو أجد لوحات كثيرة فلا أستطيع رؤية الناس ـ وهذا أسوأ ـ .. إن (جروزفينور) هي خير مكان .. »

هزّ الرسام رأسه بطريقة طالما أضحكت أصدقاءه منه .. وقال :

- « لا أحسبني مرسلها إلى أي مكان .. »

رفع لورد (هنري) حاجبيه وتأمله في دهشة عبر سحب الدخان ..

- لن ترسلها ؟ لمَ يا صديقي العزيز ؟ يا لكم معشر الفنانين من غرباء الأطوار ! .. إن لوحة كهذه سترفع ذكرك عاليًا في إنجلترا .. ولسوف يغار منك الشيوخ لو كان للشيوخ أن يشعروا بشيء .. » .

- « اعلم أنك ستسخر .. لكني لا أستطيع عرضها .. فقد وضعت كثيرًا من ذاتي فيها .. » .

- « كثيرًا من ذاتك ؟ لعمري يا (باسيل) لم أدر أنك بهذا الحمق .. لا أجد أي تشابه بينك بوجهك القوي وشعرك الفاحم ، وبين هذا الشاب الوسيم الذي صنع من العاج والزهور .. إن وجهك يحمل تعبيرًا

ذكيًا يا (باسيل) .. لكن الجمال الحقيقي ينتهي حيث تبدأ التعابير الذكية .. الذكاء يدمر توازن أي وجه .. وحين يجلس المرء ليفكر يتحول بأكمله إلى أنف أو جبين .. إن صديقك الجميل هذا الذي لا أعرف اسمه هو إنسان لا يفكر .. مخلوق جميل خاو من العقل .. أنا واثق من هذا .. لا تتملق نفسك يا (باسيل) فأنت لا تحوي أقل شبه به .. »

أجاب الرسام :

- « أنت لا تفهمني .. أنا لا أشبهه البتة .. أعرف هذا .. إن (دوريان جراي) هذا .. » .

نهض لورد (هنري) وتساءل :

- « (دوريان جراي) ؟ أهذا اسمه ؟

- « نعم .. لم أكن أبغي إخبارك به .. »

- « لمه ؟ »

- « ربما لأنني أحب الغموض .. هذا هو ما يجعل الحياة المعاصرة شائقة .. وحين أسافر لا أخبر القوم عن وجهتي وإلا فقدت متعتي .. عادة سخيفة لكنها تثير الخيال .. أترى أنني أحمق ؟ »

- بتاتًا يا عزيزي (باسيل) .. بتاتًا .. يبدو أنك تنسى أنني متزوج ... ومزية الزواج الساحرة هي أنها تجعل حياة الخداع ضرورية للزوجين ! »

قال (باسيل) ماشيًا نحو الباب المفضى إلى الحديقة :
- « إننى أمقت طريقتك فى الحديث عن الزواج .. فأنت زوج طيب .. لكنك شخص غير عادى .. كل كلامك بذىء وكل أفعالك نقية طاهرة .. »
وخرج الرجلان إلى الحديقة وجلسا على مقعد طويل من البامبو تحت خميلة ، وقد انساب ضوء الشمس من بين الأوراق ..
أخرج اللورد ساعته وقال :
- « أخشى أن يكون علىّ الانصراف أى (باسيل) .. لكن - قبل رحيلى - أرغب فى أن تجيب عن سؤالى .. لماذا لا تريد عرض صورة (دوريان جراى) ؟ أريد الإجابة الحقيقية .. »
- « قلتها لك .. »
- كلا .. لم تفعل .. قلت : إن هناك الكثير من ذاتك .. وهذا تفسير طفولى .. »
نظر (باسيل) فى عينيه وقال :
- .. إن كل لوحة رسمت بإحساس صادق هى صورة للرسام وليس للجالس أمامه .. ليس الجالس هو من تراه بل الرسام الذى كشف روحه على القماش .. لقد أظهرت أدق أسرار روحى فى هذه الصورة ؛ لهذا أهاب عرضها على الملأ .. »

ابتسم لورد (هنرى) والتقط زهرة أقحوان أرجوانية من الأعشاب ، وراح يتأملها مصغيًا .. وهو يتساءل عن بقية ما سيقول (باسيل) ..
بعد هنيهة قال الرسام :
- « منذ شهرين ذهبت إلى حفل فى دار السيدة (براندون) .. أنت تعرف أن على الفنانين الفقراء أن يظهروا فى المجتمعات من آن لآخر ليعرف الناس أنهم ليسوا متوحشين .. وبمعطف سهرة وربطة عنق بيضاء يمكن لأى جلف أن يبدو للناس متحضرًا .. وقضيت عشر دقائق أثرثر مع رجال الأعمال والأكاديميين المملين .. ثم شعرت بأن هناك من يراقبنى .. استدرت لأرى (دوريان جراى) للمرة الأولى .. أدركت للمرة الأولى أن هذا الشخص بوجوده الساحر قادر على امتصاص وجودى وفنى ذاته .. أصابنى الهلع .. وشعرت أن القدر يدارى لى مسرات عديدة وآلامًا لا توصف .. واستدرت لأغادر القاعة يحدونى شعور هو نوع من الجبن .. ، وهنا اصطدمت بالسيدة (براندون) .. فسألتنى بصوتها الصارخ الرفيع (لا أظنك مفارقنا بهذه السرعة يا مستر هولورد) ؟ لم أستطع التملص منها .. وقدمتنى إلى أمراء من الأسرة المالكة وأشخاص يرتدون ربطة

الساق والأشرطة ونساء من العجائز المتصابيات .. قدمتنى لهم باعتبارى أعز أصدقائها وفى النهاية وجدتنى أصافح (دوريان جراى) .. وتعارفنا .. »

سأله اللورد :

- « وكيف وصفت لك السيدة (برندون) هذا الشاب ؟ إنها تعامل ضيوفها كما يعامل سمسار المزادات بضاعته .. إنها تخبرك بكل تفاصيلهم فيما عدا الشىء الذى تود معرفته حقًا .. »

- « آه يا عزيزى .. أنت قاس عليها .. »

- « لقد حاولت تلك المرأة أن يكون لها صالون أدبى .. لكنها نجحت فى أن يكون لها مطعم .. فكيف أعجب بها ؟ قل لى ما قالته عنه »

- قالت كلامًا فارغًا على غرار (فتى ساحر - المرحومة أمه وأنا كنا لا نفترق - لا أذكر عمله .. أعتقد أنه لا يعمل شيئًا - أوه .. نعم .. إنه يعزف على البيانو .. أم تراه الكمان ؟) .. ولم أستطع أنا و (جراى) أن نمنع نفسينا من الضحك .. وصرنا صديقين على الفور .. »

قال اللورد :

- « ليس الضحك بداية سيئة للصداقة .. وما زال أفضل نهاية لها .. »

ثم سأله وهو يداعب لحيته البنية المدببة :

- « هل ترى هذا الـ (دوريان) كثيرًا ؟ »

- « يوميًا .. ولا أشعر بسعادة ما لم أره .. »

- غريب ! حسبتك لا تبالى بشىء فيما عدا فنك .. »

قال الفنان بجدية :

- « أحيانًا يخطر لى أن هناك عنصرين شديدى الأهمية فى تاريخ العالم .. الأول هو ظهور وسط مناسب للفنون .. والثانى هو ظهور شخصية مناسبة للفنون .. إن (دوريان جراى) لوجه منهم .. وأعتقد أن هذه الصورة هى خير ما رسمت فى حياتى .. لكن - لا أدرى إذا كنت تفهمنى - شخصيته قد ألهمتنى بأسلوب فريد فى الرسم .. يمكننى أن أرسم الحياة بطريقة كانت خبيئة عنى قبل اليوم .. إنه يقدم لى معالم مدرسة جديدة .. مدرسة تحوى كل عاطفة الرومانسيين وإتقان وكمال الروح الإغريقية .. تناغم الروح مع الجسد .. نحن فصلنا الاثنين عن بعضهما فتركنا روحًا خاوية وجسدًا سوقيًا فظًا .. »

« (باسيل) ! .. إن هذا مذهل .. لابد من أن أرى (دوريان جراى) .. »

- لهذا تفهم سر إحجامى عن عرض الصورة .. نحن نعيش فى عصر ينظر فيه الناس إلى الفنون

نظرتهم إلى السير الذاتية .. لقد فقدنا حاسة تجريد الجمال .. »

- « لن ألح عليك يا (باسيل) .. الجهلاء فقط هم من يجادلون ويلحون .. قل لى .. هل (دوريان جراى) يميل إليك كصديق ؟ »

تفكر الرسام هنيهة ، ثم قال :

- « يميل إلىّ .. أعرف هذا .. إننا نتحدث فى آلاف المواضيع بينما نحن فى المرسم .. لكنى أجد فيه أحيانًا خواءً عقليًا مروعًا .. »

أشعل اللورد عودًا من الثقاب فسيجارًا ، وقد بدا عليه الرضا عن النفس .. من حسن الحظ أن الموعد قد فات .. فلن يذهب لدار عمته .. حيث يلقى لورد (هودبودى) ويدور الحديث حول إطعام الفقراء ، وأهمية التوسع فى بناء المساكن .. لحسن الحظ أنه قد فرّ من هذا .. وهنا تذكر شيئًا فالتفت إلى صاحبه وقال له :

- « لقد تذكرت شيئًا الآن يا صديقى .. » .

- « تذكرت ماذا ؟ »

- تذكرت أين سمعت اسم (دوريان جراى) .. »

- « أين ؟ »

سأله (هولورد) مقطب الجبين .. فقال اللورد :

- « كان هذا عند عمتى (أجاثا) .. قالت لى : إنها تعرفت شابًا لطيفًا .. وأنه جاد مخلص .. تخيلت على الفور رجلاً يرتدى العوينات وقد امتلأ وجهه بالنمش .. ولم أتصور لحظة أنه صاحبك .. »

- « يسرنى أنك لم تعرف .. »

- « لماذا ؟ »

- « لا أريد أن تقابله .. »

وهنا دخل الخادم إلى الحديقة ليعلن ..

- « مستر (دوريان جراى) فى المرسم يا سيدى ! »

ضحك لورد (هنرى) وقال :

- « الآن عليك أن تقدمنى له .. »

نظر الرسام إلى صاحبه اللورد ، وقال له بعد ما صرف كبير الخدم :

- « إن (دوريان جراى) أعز أصدقائى .. إن له طبيعة لطيفة بسيطة .. فلا تحاول التأثير عليه أو إبهاره بمنصبك .. »

- « يالك من سخيف ! »

قالها اللورد باسمًا ، واقتاد (هولورد) من ذارعه عائدين إلى المنزل ..

★ ★ ★

- ٢ -

دخلا القاعة فرأيا (دوريان جراى) جالسًا إلى البيانو وظهره لهما ، وهو يقلب صفحات مجلد من مؤلفات (شومان) هو (مشاهد الغابة) ..

صاح فى حماس :

- « يجب أن تقرضنى هذه يا (باسيل) .. أريد تعلمها إنها فاتنة .. »

- هذا يتوقف على جلوسك للرسم يا (دوريان) .. »

دار الشاب بمقعده ليواجههما قائلاً :

- « أوه .. قد سئمت الجلوس .. ولا أبغى صورة لى بالحجم الطبيعى .. »

وهنا رأى اللورد فاحمرّ وجهه قليلاً .. وغمغم :

- معذرة يا (باسيل) .. لم أدر أن لديك ضيفًا هاهنا .. »

- هو لورد (هنرى) .. صديق قديم من أيام (أوكسفورد) .. كنت أحدثه عن جلوسك المنتظم للرسم .. لكن هأنتذا قد أفسدت كل شىء .. »

خطا لورد (هنرى) للأمام وصافح الشاب قائلاً :

- لكنك لم تفسد متعتى بلقائك .. قد حدثتنى عمتى عنك .. أنت واحد من أصدقائها المفضلين وكذلك - يؤسفنى - واحد من ضحاياها »

تأمله لورد (هنرى) مليًا .. نعم .. كان وسيمًا حقًا بعينيه الزرقاوين الصريحتين وشعره الذهبى المجعد .. وثمة شىء فى وجهه يجعلك تثق به على الفور .. كأن هذا الفتى ظل فى معزل عن آثام العالم .. فلا عجب أن انبهر به (باسيل) ..

كان الرسام منهمكًا فى خلط الألوان وإعداد فرشاته .. وكان متوترًا إلى حد ما .. حين رفع عينيه ليقول للورد :

- « (هنرى) .. أريد إنهاء هذه الصورة اليوم .. هل ترى من الوقاحة أن أسألك الرحيل الآن ؟ »

ابتسم لورد (هنرى) ونظر إلى (دوريان) :

- « هل أرحل يا مستر (جراى) ؟ »

- « البتة يا لورد (هنرى) .. إن (باسيل) يمرّ ببعض لحظاته العصبية .. »

لكن لورد (هنرى) أخذ قبعته وقفازيه وقال :

- « أخشى أنه ينبغى أن أرحل حقًا .. فلدى موعد مع رجل فى (أورليانز) .. وداعًا مستر (جراى) .. تعال لتلقانى يومًا ما فى شارع (كورزون) .. إننى أعود لدارى فى الخامسة .. »

صاح (دوريان) :

- « (باسيل) .. لو رحل لورد (هنرى) فسألحق به .. أنت لا تفتح فاك فى أثناء الرسم .. وإنه ليثير مللى أن أقف طيلة الوقت صامتا أحاول أن أبدو وسيمًا .. أرجوك دعه يبق .. »

تساءل لورد (هنرى) :

- « وماذا عن الرجل الذى ينتظرنى فى (أورلياتز) ؟ »

ضحك الرسام وقال :

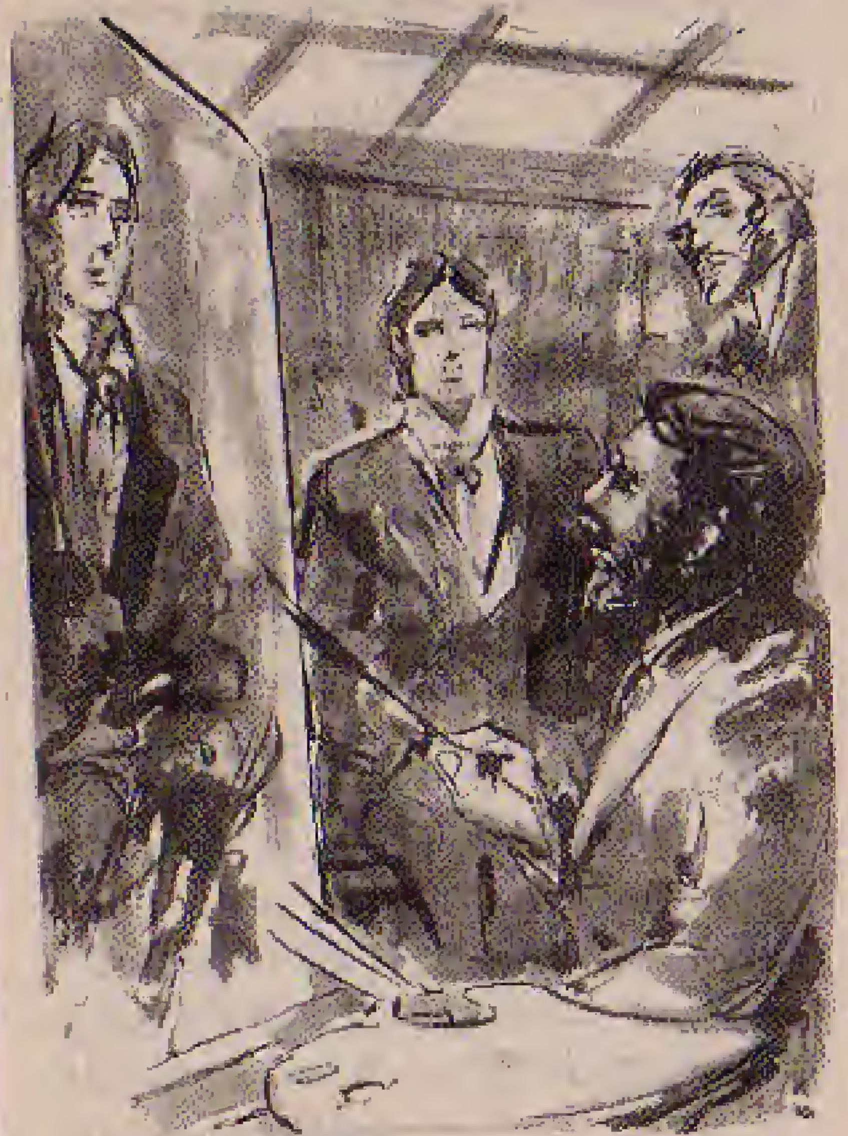
- « لن تكون ثمة مشكلة .. عد للجلوس يا (هنرى) وأنت يا (دوريان) .. لا تتحرك كثيرًا ولا تلق بالاً لما سيقول لورد (هنرى) .. »

صعد (دوريان) درجتين إلى المقعد وجلس فوقه .. وأصدر آهة تأفف .. وراح الرسام يضع الألوان على اللوحة ..

- « أدر وجهك لليمين قليلاً يا (دوريان) كولد طيب .. »

ومر الوقت و (باسيل) منهمك فى الرسم بلمسته الجريئة المميزة .. ولم يعد يشعر بالصمت الذى ساد القاعة ..

هنا صاح (دوريان جراى) ..



كان الرسام منهمكًا فى خلط الألوان وإعداد فرشاته ..

- « (باسيل) .. لقد سئمت الوقوف .. يجب أن أخرج وأجلس فى الحديقة .. إن الهواء ثابت ها هنا .. »

- « واعزيزى .. أستميحك عذرًا .. فحين أرسم لا أفكر فى شىء سواه .. لكنك لم تجلس قط أفضل من هذا .. وأعطيتنى التأثير الذى أردته .. »

قال اللورد (هنرى) :

- « إن الحر لشديد فى المرسم حقًا .. فلتقدم لنا شيئًا باردًا نحسوه يا (باسيل) .. وليكن به بعض الشليك .. »

- « ليكن يا (هنرى) .. اقرع الجرس واطلب من (باركر) ما تريد .. ما زال علىّ أن أفرغ من هذه الخلفية .. لا تؤخر (دوريان) كثيرًا .. فلم أكن قط فى مزاج أفضل للرسم .. ستكون هذه تحفتى .. »

وخرج لورد (هنرى) إلى الحديقة ، ليجد (دوريان) يتشمم فى نهم عبق زهور (الليلاك) .. قال للفتى فى تأمل :

- « أنت محق .. لا شىء يشفى الروح كالحواس .. ولا شىء يشفى الحواس كالروح .. »

ثم قال للفتى :

- « أنت تملك الشباب .. ويومًا ما حين تشيخ وتتجعد بشرتك .. ويحرق الفكر جبينك بمحرقته ، ستشعر

بحسرة فقدان الشباب .. إن لك وجهًا قسيمًا يا (دوريان) .. لكن هل سيظل كذلك ؟ والجمال هبة غير عادية لأنها لا تحتاج إلى تفسير .. مثلها كضوء الشمس والربيع .. إن له استقلاله الخاص المقدس .. تبتسم ؟ .. حين تفقده لن تبتسم .. إن الزمن يغار منك وأطرافنا تتخاذل وحواسنا تتعفن فتتحلل إلى دمى قبيحة ، تسكنها ذكرى مشاعر خفنا منها .. الشباب !.. لا شىء فى الكون كالشباب ! »

راح (دوريان) يرمق (الليلاك) شاخص البصر .. بذلك الاهتمام الذى نصغى به لأمور مهمة تفزعنا .. ثمة نحلة تئز هنا وهناك ..

وهنا ظهر الرسام .. وأشار لهما كى يلحقا به ..

عاد الصديقان الجديدان إلى المرسم ، وجلس (دوريان) يصغى لصوت احتكاك الفرشاة باللوحة .. ويشم رائحة الورود ..

توقف الرسام بعد ربع ساعة ليتأمل (دوريان جراى) ثم يتأمل الرسم .. وعض على نهاية الفرشاة .. ثم غمغم :

- « لقد انتهيت ! »

وانحنى ليكتب اسمه على الركن الأيسر السفلى من اللوحة ..

تفقد لورد (هنرى) الصورة .. كانت تحفة حقًا ..

نهض الشاب بدوره ليرى .. تأملها .. وغمر وجهه غبطة .. كان (هولورد) يحدثه لكنه لم يع حرفا مما يقال .. وللمرة الأولى بدا أنه يدرك مدى جماله الخاص .. وعرف أن الزمن سيدمر هذا الجمال تدميرًا .

أحس بألم حاد يمزقه .. وإلى عينيه تسربت الدموع ..

سأله (هولورد) فى قلق غير فاهم لسرّ صمته :

ـ « ألم ترق لك ؟ »

قال (دوريان) فى صوت خفيض :

ـ « يا للحزن ! .. سأشيخ وأتجعد بينما تحتفظ هذه الصورة بشبابها .. لن تشيخ أبدًا عن هذا اليوم من شهر (يونيو) .. لو كان بوسعى أن أظل كما أنا وتشيخ هذه الصورة بدلا منى !.. إننى لأعطى كل شىء مقابل أمنية كهذه .. أعطى روحى ذاتها ..! »

ضحك لورد (هنرى) قائلاً :

ـ « لا أظن هذا يضايقك يا (باسيل) .. إن هى إلا خطوط على رسمك .. »

قال (باسيل) :

ـ « أعترض على هذا بقوة .. »

نظر له (دوريان) مليًا . وقال :

ـ « أنت تحب عملك وفنك أكثر مما تحب صديقك .. وما أنا لك إلا تمثال من البرونز .. موديل .. »

لم يعتد الرسام لهجة الغضب هذه من (دوريان) .. فماذا حدث ؟ ..

واصل الفتى الكلام الحانق :

ـ « كما قال لورد (هنرى) .. لن تهتم برسمى ثانية فى اللحظة التى تظهر فيها أول تجعيدة على جبينى .. إن الشباب هو القيمة الوحيدة فى الكون .. ويوم أدرك أننى أشيخ سأقتل نفسى .. »

شحب الرسام وصاح ممسكًا ذراع (دوريان) :

ـ « أتغار من لوحة ؟ »

ـ « أغار من كل جمال لا يفنى .. أغار من هذه الصورة .. لماذا تحتفظ بما سوف أفقده أنا حتمًا ؟ كل ثانية تمر تسلبنى شيئًا ولا تأخذ من هذه الصورة شيئًا . لماذا رسمتنى ؟ .. ستجلب هذه الصورة السخرية علىّ يومًا ما .. »

واحتشدت العبرات فى مقلتيه وهرع إلى الأريكة ، ليدفن وجهه فى الطنافس وكأنه يصلى ..

نظر الرسام إلى اللورد بمرارة وقال :

ـ « هذا فعلك .. كان ينبغى أن ترحل حين سألتك هذا .. »

ـ بل بقيت حين طلبت منى ذلك .. »

ـ « (هنرى) .. أنا لا أستطيع الشجار مع أفضل صديقين لى فى ساعة واحدة ..

لكنكما جعلتمانى أمقت أفضل صورة رسمتها .. ولسوف أحرقها .. !.. إنها مجرد قماش وألوان ولن أتركها تفسد صداقتنا .. »

كان يتكلم وهو يعبث بين أنابيب الألوان والفرش .. ولمحه (دوريان) حين رفع عينيه الدامعتين .. عم يبحث ؟ نعم .. يبحث عن سكين المعجون الكبيرة .. كان يوشك على تمزيق القماش ..

وبوثبة سريعة هرع الفتى لينزع السكين منه ويلقيها بعيداً :

ـ « لا تفعل يا (باسيل) .. لا تفعل . هذا اغتيال .. ! »

عاد للرسام هدوؤه ، فقال فى برود وهو يتخلى عن السكين :

ـ « أنا مسرور أنك تقدر عملى أخيراً يا (دوريان) .. »

ـ « أقدره ؟ أنا مفتون به .. إنه جزء من روحى .. »

ـ « حسن . ما إن تجف ويتم وضع إطار لك ونرسلك لدارك .. عندها يمكنك عمل ما تشاء بنفسك .. »

قال لورد (هنرى) فى هدوء :

ـ « أنا لا أهوى المواقف الضخمة إلا على خشبة المسرح .. كل هذا الصراخ والتشنج .. يمكنكما إنهاء الموقف بإعطائى اللوحة .. (باسيل) .. هذا الفتى السخيف لا يريد اللوحة حقاً .. أنا أريدها .. »

قال (دوريان) :

ـ « لن أسامحك يا (باسيل) أبداً لو فعلت .. ولا تسمح لأحد بأن يدعونى فتى سخيفاً .. »

قال (باسيل) :

ـ هى لك يا (دوريان) .. وهبتك إياها من قبل أن توجد .. »

عادت الأمور إلى نصابها تدريجياً .. وحول أقداح الشاى تبادل الأصدقاء عبارات المزاح .. وهنا اقترح اللورد (هنرى) أن يدعو الرجلين إلى المسرح هذه الليلة .. لكن الرسام تنصل من الدعوة لأن عليه مسئوليات عديدة ..

وهكذا غادر (هنرى) و (دوريان) المرسم تاركين (باسيل) وحده .. يتأمل اللوحة وعلى وجهه تعبير من الألم ..

★ ★ ★

- ٣ -

فى الثانية عشرة والنصف فى اليوم التالى اتجه لورد (هنرى) إلى دار عمه فى (ألبانى) .. وهو شيخ عزب خشن الطباع نوعا يعتبره الناس أنانيًا لأنهم لا يحصلون على نفع ما منه .. لكن المجتمعات الراقية كانت تعتبره كريمًا لأنه يطعم القوم الذين يسلونه .. وكان قد درس بعناية ذلك الفن الأرستقراطى فى عدم عمل شىء على الإطلاق .. ، ولم يكن ليلد أن ينجب رجلاً كهذا سوى (إنجلترا) .. وهو بدوره كان يردد دومًا أن البلد ذاهبة إلى الكلاب ..

حين دخل لورد (هنرى) المكان وجد عمه جالسًا يطالع (التايمز) .. فما إن رآه عمه حتى سأله :

- « هيه يا (هارى) .. ماذا جاء بك مبكرًا هكذا ؟ حسبت أن الشباب الرقيع من أمثالك لا يصحو من النوم قبل الثانية ظهرًا .. ولا يظهر للعيان قبل الخامسة »

- « مجرد هوى عائلى يا عماه . أبغى شيئًا ما منك .. »

- « طبعًا تبغى مالاً .. إن شباب اليوم يحسبون المال هو كل شىء .. »

قال (هنرى) وهو يفك أزرار معطفه :

- « نعم .. وحين يكبرون فى السن يعرفون أن المال هو كل شىء حقًا لكنى لا أريد مالاً .. فقط من يدفعون فواتيرهم هم من يحبون المال . إن الديون هى رأس مالى الذى أعيش منه .. ما أريده هو معلومة .. معلومة غير مفيدة طبعًا .. »

« سل ما تريد .. »

سأله (هنرى) وهو يسترخى على المقعد :

- « أريد معرفة من هو (دوريان جراى) .. إنه آخر أحفاد لورد (كيلسو) وأمه هى ليدى (مارجريت ديفورو) .. أريد أن تعطينى معلومات أكثر »

قطب العجوز وداعب شعر حاجبيه :

- « أوه ! .. طبعًا .. أنا أعرف أمه وحضرت تعميدها .. كانت فتاة فاتنة أثارت جنون الجميع حين فرت لتتزوج من تافه فقير .. مات بعدها فى مبارزة ، كيف حال ابن هذه المرأة ؟ أتعشم أن يكون فى يد أمينة لأن أباه وأمه تركا له ميراثًا ضخمًا .. لكنى لا أفهم تصرف هذه المرأة .. كان بوسعها أن تتزوج أى شخص تريد فى اللحظة التى تقرر فيها هذا .. »

ثم تصلب وضرب المائدة بقبضته :

ـ بمناسبة الزيجات السخيفة .. يقولون : إن (دارتمور) سيتزوج امرأة أمريكية .. ألا يجد فى الإنجليزيات من تناسبه ؟ »

ـ « إنها الموضة الآن يا عماه .. »

ـ « الأمريكيات لا يعمرن فى البيوت .. ومن هم أهلها ؟ »

ـ « الأمريكيات يخفين أهلهن بنفس البراعة التى تخفى بها الإنجليزيات ماضيهن ! »

ـ « لابد أن أهلها يربون الخنازير .. »

ـ « ليت هذا يكون صحيحًا يا عماه .. يقولون : إن تربية الخنازير تجلب الثراء فى أمريكا .. »

ـ « وهل هى جميلة ؟ »

ـ « كل الأمريكيات يتصرفن كما لو كن جميلات .. وهذا سر سحرهن .. والآن وداعًا يا عماه .. لا أريد التأخر عن الغداء .. شكرًا على هذه المعلومات »

ـ « قلت لعمتك (أجاثا) أن تكف عن إزعاجى بمشاريعها الخيرية .. »

ـ « سأجبرها يا عماه .. لكن لن يجدى هذا .. إن محبى البشر على غرارها يفقدون كل إحساس بالإنسانية .. وكلهم فى هذا سواء .. »

وغادر لورد (هنرى) المنزل قاصدًا ميدان (بيركلى) ..

دخل منزل عمته فناول قبعته وعصاه للخادم ، ثم دلف إلى قاعة الطعام .. وجذب مقعدًا ليجلس .. رفع عينيه فوجد (دوريان) عند طرف المائدة يحنى رأسه له محييًا .. وكانت الدوقة (هارلى) جالسة .. وجوارها سير (توماس بيردن) نائب البرلمان المتطرف .. وعلى الناحية الأخرى مستر (إرسكين تريدلى) وهو رجل مهذب مثقف لكنه صموت جدًا ، لأنه ـ كما قال للعمة (أجاثا) ـ قال كل ما يمكن قوله قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر ..

كانت المأدبة ناجحة ، وتكفلت دعابات لورد (هنرى) وآراؤه الثورية بإضفاء جو من التسلية والإمتاع ، حتى إن المستر (إرسكين) أصرّ على أن يعطيه عنوانه ليزوره فيما بعد .. وشعرت الدوقة بالحزن لانتهاء ميعاد الغداء سريعًا ..

★ ★ ★



كان هذا صوت امرأة .. وسرعان ما رأى
من تدخل المكتبة

كان (دوريان) جالسًا في حجرة المكتب في دار لورد (هنرى) ، يتأمل الغرفة الجميلة بسقفها المصنوع من خشب البلوط وزخارفها ، وسجاجيدها الفارسية السميكة .. وكانت هناك منضدة صغيرة عليها تمثال صغير لـ (إقليدس) .. وجواره رواية فرنسية مجلدة بعناية .. ، وعلى رف المدفأة كانت آنية خزفية جميلة ..

لم يكن لورد (هنرى) قد جاء بعد ، فراح الفتى يقلب في ملل صفحات كتاب وجده هناك .. وفكر أكثر من مرة في الانصراف ..

سمع خطوة بالخارج وانفتح الباب ، فهتف :

- « قد تأخرت كدأبك أى (هارى) ! »

- « أخشى أنني لست هو .. »

كان هذا صوت امرأة .. وسرعان ما رأى من تدخل المكتبة قائلة :

- « أنا زوجته .. لابد أنك (دوريان جراى) .. »

كانت لها عينان من طراز (لاتنسى أبدًا) .. وثيابها غريبة جدًا تبدو كأنما تم تصميمها في ثورة

وتم ارتداؤها فى عاصفة .. حاولت طوال حياتها أن تبدو حسناء أنيقة لكنها لم تنجح قط .. اسمها هو (فكتوريا) ..

قالت له :

- « رأيتك البارحة فى الأوبرا .. فى أثناء عرض (لوهنجرين) .. أنا أحب موسيقا (فاجنر) .. إنها عالية صاخبة تسمح لك بالحديث دون أن يسمع الآخرون ما تقول ! .. إنها لمزية هائلة .. »

وضحكت ضحكة عصبية متقطعة .. وأردفت :

- « أنا أعشق الموسيقا .. خاصة عازفى البيانو .. يبدو لى أن السبب هو كونهم أجانب دائمًا ! .. ألا ترى هذا ؟ حتى من ولدوا منهم فى إنجلترا يغدون أجانب بمرور الوقت ! .. لماذا لا تحضر إحدى حفلاتى يا مستر (جراى) ؟ إنها ممتعة دائمًا .. لكن هوذا (هارى) ! .. (هارى) .. كنت أبحث عنك فوجدت مستر (جراى) هنا .. كنا نثرثر عن الموسيقا .. ووجدنا آراءنا متماثلة تمامًا .. »

رفع لورد (هنرى) حاجبيه المقوسين وابتسم :

- « هذا يسرنى ياحبيبتى .. يسرنى .. معذرة على تأخرى يا (دوريان) »

حيتهما الزوجة بطريقتها المتقطعة الغريبة ثم انصرفت ..

أشعل لورد (هنرى) سيجارًا وألقى بنفسه على الأريكة قائلًا :

- « لاتتزوج امرأة شعرها بلون القش الأصفر يا (دوريان) .. أبدًا »

« ولماذا ؟ »

- « لأن من شعرها بلون القش عاطفية جدًّا .. »

- « لا أظن أننى سأتزوج من أحبها يا (هارى) .. لكنى أحبها كثيرًا .. »

- « ومن التى تحبها ؟ »

احمرّ وجه الفتى وغمغم :

- « ممثلة مسرح هى .. »

- « اسمها ؟ »

- « اسمها (سيبل فين) .. »

- « لم أسمع عنها قط .. »

- « لم يسمع أحد عنها .. لكنها عبقرية .. »

- « يا بنى لاتوجد امرأة عبقرية .. النساء جنس زخرفى لا أكثر .. ليس لديهن ما يقال لكنهن يقلنه بأسلوب ساحر .. إنهن يمثّلن انتصار المادة على الروح .. كما يمثل الرجال انتصار العقل على الأخلاق ! »

- « (هارى) ؟ كيف بوسعك أن ؟ »
- « دعك من هذا وقل لى : أين قابلتها ؟ »
- « سأخبرك لكن لا تكن عديم التعاطف هكذا .. كانت ليلة شعرت فيها بالملل والحاجة إلى التغيير .. فخرجت أمشى فى (لندن) الرمادية الغامضة - كما تدعوها - حتى وجدت مسرحا صغيرا بائسا .. وكان هناك يهودى بشع الخلقة يبيع التذاكر على الباب فابتعت واحدة ودخلت .. ولو لم أفعل لفاتنى أعظم حب فى حياتى .. أنت تضحك ! »
- « لا أضحك منك .. ولا تقل : إن هذا (أعظم حب) .. بل هو (أول حب) فى حياتك .. »
- « كان المسرح مروعًا غث الذوق من الداخل .. الكل يلتهم البندق والبائعات يطفن هنا وهناك بالبرتقال والجعة .. كان كل هذا مثيرًا للكآبة وكدت أنصرف حين سمعت (جرس) المسرح يدق .. هل تعرف أية مسرحية كانت ؟ (روميو وجولييت) .. فى البدء شعرت بإشمئزاز من أن أرى (شكسبير) يقدم فى هذا المكان القذر .. ثم انفتح الستار .. كان كل شىء كما توقعت .. لكن .. (جولييت) !..

تصور يا (هارى) فتاة عمرها سبعة عشر عامًا وجهها يشبه الزهرة .. وشعرها مجعد كشعر الإغريقيات .. ولها شفتان كورقتى وردة .. كانت أروع ما رأيت فى حياتى .. وصوتها .. لم أسمع قط صوتا كهذا .. بدا لى كصوت ناى فى الغابات .. كصوت الكروان فى الفجر .. لماذا لا أهواها يا (هارى) ؟ إنها كل شىء فى الحياة لى .. وليلة بعد ليلة أذهب لأرى تمثيلها .. أراها فى ليلة (روزالند) .. وفى ليلة أخرى (إيموجن) .. رأيتها تموت فى مقبرة إيطالية ورأيتها تلهو فى غابات (الأردين) .. رأيتها فى كل عصر وكل زى .. هذا هو سحر الممثلات الذى يختلف عن النساء العاديات حبيسات قرونهن ، واللواتى لا يتغيرن أبدًا .. لماذا لم تعلمنى يا (هارى) أن الوحيدة الجديرة بالحب هى من تعمل ممثلة ؟! »
- « لأننى أحببت بعضهن .. هلا ناولتنى الثقاب من فضلك ؟ .. شكرًا .. ما هى حدود علاقتك بها ؟ »
ضم الفتى ساقيه واحمر وجهه وصاح :
- « (هارى) ! .. إن (سيبل فين) قدسية ! »
- « لا بأس .. هل تعرفها على الأقل ؟ »

- « طبعًا .. لقد جاءنى اليهودى بشع الخلقة بعد العرض ودعانى كى أتعرفها .. لكننى رفضت فى عصبية لأن (جولييت) قد ماتت منذ مئات السنين وجسدها يرقد فى تابوت رخامى فى (فيرونا) .. لابد أنه حسبنى ثملاً .. لكنه وجدنى فى اليوم التالى أدخل مسرحه .. جعله هذا يؤمن بأننى أعشق فنه وفن فرقته حقًا .. ، وفى الليلة الثالثة كانت (سيبل) تؤدى دور (روزالند) .. ولم أستطع التحكم فى نفسى فرميت لها بعض الورود .. ورأتنى .. »

- « حسن .. وكيف كان سلوكها بعد ذلك ؟ »

- « أوه .. كانت خجولاً رقيقة .. ثمة شىء فيها يذكرك بطفل .. عيناها تتسعان دومًا فى انبهار ، وهى غافلة تمامًا عن سحرها ..

كان اليهودى واقفًا على الباب يتكلم عنا نحن الاثنين ، بينما أنا وهى صامتان نتبادل النظرات .. وأدركت أنها حين تكلمت - لا تفقه شيئًا عن الحياة .. كأنما هى تعيش على المسرح دومًا .. إنها طاهرة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها .. »

- « آه .. أرى سبب تخلفك عن العشاء معى هذه الأيام .. »

- « لا أستطيع ألا أراها .. أشعر بالجوع لتمثيلها .. الليلة ستكون (إيموجن) وغدًا تعود (جولييت) .. »

- « ومتى تكون (سيبل فين) ؟ »

- « لا يحدث أبدًا .. »

- « أهنئك ! »

- « يا لقسوتك ! .. إنها أكثر من امرأة عادية .. أريد أن تعلمنى كيف أجعلها تهوانى .. أريد أن يغار (روميو) منى .. أريد أن يصحو العشاق الموتى على ضحكاتنا ويشعروا بالحسرة ... »

كان يتكلم وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا .. كان منفعلاً حقًا .. وراقبه (هنرى) فى استمتاع .. لشد ما تبدل الفتى سريعًا ..

- « وماذا تريد أن تفعل ؟ »

- « ستأتى معى و (باسيل) لتريا أداءها .. ثم نحررها من قبضة اليهودى الذى يحتكر تمثيلها لثلاثة أعوام .. سأدفع له مبلغًا من المال .. ثم أجد لها مسرحًا محترمًا يقدمها للعالم لتبهره كما بهرتنى .. »

- « حسن .. ومتى هذا ؟ »

- « ليكن غدًا .. الأربعاء .. السادسة والنصف قبل رفع الستار .. »

– « ياله من موعد ! .. حسن .. و (باسيل) .. قل له أن يأتى معنا .. »

– « يا لهذا العزيز .. ! أنا لم أره منذ أسبوع .. لقد أرسل لى لوحته مع إطار رائع صممه بنفسه .. لقد بدأت أسعد باللوحة برغم كونى أغار من أنها اليوم أصغر منى بشهر .. ربما كان عليك أن تدعوه بنفسك .. فهو لا يكف عن إسداء النصح لى .. »

– « إن (باسيل) يضع كل ماهو فاتن فى شخصه فى لوحاته .. وبالتالى لا يبقى له هو نفسه شىء .. إن الفنانين ذوى الشخصية الجذابة الذين قابلتهم فى حياتى كانوا فنانين رديئين .. الفنانون الجيدون يتواجدون فى أعمالهم وبالتالى تجدهم مملين فى شخوصهم .. والشاعر العظيم حقًا هو أقل الناس شاعرية فى كلامه وحياته .. »

هزّ (دوريان) رأسه وسكب بعض العطر من قارورة زجاجية على منديله .. وقال :

– « على كل حال .. لا تنسنى غدًا .. وداعًا »

فما إن غادر الغرفة حتى أغلق لورد (هنرى) عينيه بأهداب ثقيلة وراح يفكر .. لقد أسعده غرام الفتى الوليد .. جعل الفتى بالنسبة له أكثر تشويقًا

وجدارة بالدراسة .. ما أروع دراسة الحياة ! دراسة منطق العاطفة المعقد وكيف يتخلى القلب عن العقل ..

إن الفتى من صنعه هو .. كلماته التى يسكبها فى مسمعه طوال الوقت جعلته يبحث عن الحب قبل أن يذوى شبابه ..

إن التجريب هو الوسيلة الوحيدة التى يثق بها للحصول على حقائق علمية .. و (دوريان جراى) موضوع تجربة شائق .. كل هذا الطهر والنقاء يهيم حبًا بممثلة من الدرجة الثالثة .. حب هو إلى الفضول أقرب ..

وهنا قطعت عليه خواطره دقة على الباب .. كان هناك من يذكره بأن يرتدى ثيابه للعشاء ..

وحين عاد إلى داره عند منتصف الليل ؛ وجد برقية على مائدة الرواق .. ففتحها فوجدها من (دوريان جراى) ..

لقد خطب الفتى (سبيل فين) ...

★ ★ ★

— ٥ —

ـ « أماه ! .. أماه ! .. ما أسعدنى ! »

همست الفتاة ودفنت وجهها فى حجر المرأة الشاحبة المنهكة الجالسة على المقعد الوحيد فى غرفة الجلوس ..

وضعت المرأة يدها التى ابيضت أناملها على شعر الفتاة .. وقالت :

ـ « أنا أسعد مثلك يا (سيبل) حين أراك تمثلين .. لا تفكرين فى شىء سوى التمثيل .. إن مستر (إسحق) طيب معنا ويديننا بالمال »

ـ « الحب أهم من المال يا أماه .. »

ـ « إن خمسين جنيهًا لمبلغ كبير .. والرجل متفهم حقًا .. »

قالت الفتاة وقد نهضت واتجهت للنافذة :

ـ « الحق أنه ليس رجلاً مهذبًا .. لا أحب أسلوبه فى الكلام معى »

ـ « لا أدرى كيف كنا سنعيش من دونه .. »

ـ « لن نحتاج إليه بعد اليوم .. إن الأمير الوسيم يعنى بأمرنا من الآن »

قالتها .. وانفرجت زهرة ثغرها قليلاً وزفرت فى انفعال .. واحمر خداها إثر زهرة تفتحت فى دمها .. ، وببساطة همست :

ـ « أنا أحبه ! »

تحدثت الحكمة ضامرة الشفتين من مقعدها البالى .. تحدثت من كتاب الجبن الذى ينتحل مؤلفه اسم (العقل) .. لكن الفتاة لم تصغ .. كانت حرة فى سجن عاطفتها .. أرسلت روحها لتفتش عنه ..

وحين تكلمت قالت :

ـ « أماه .. لماذا يحبنى بهذا الشكل ؟ أنا أعرف لماذا أحبه .. أحبه لأنه هو ما ينبغى أن يكونه الحب ذاته .. لكن ماذا يرى فىّ ؟ إننى لا أستحقه .. أعرف هذا لكنى لا أشعر بضعة بل بفخر .. »

ازداد وجه المرأة شحوبًا تحت المساحيق التى تغلف وجهها .. وتقلصت شفتاها الجافتان فى ألم .. عانقتها (سيبل) .. لفت ذراعها حول عنقها ولثمتها .. فقالت المرأة :

ـ « يا طفلتى .. أنت أصغر سنًا من أن تقعى فى الحب .. ثم ماذا تعرفين عن هذا الشاب ؟ حتى اسمه .. الأمر كله غير مرض »

ـ « أماه .. ماما .. أرجوك دعينى أكن سعيدة ! »

نظرت لها المرأة ثم ـ بحركة إيمائية مسرحية من التى تصير طبيعية ثانية لدى الممثلين ـ احتضنتها بين ذراعيها ..

هنا دخل الغرفة شاب مجعد الشعر ضخم الأطراف .. كان واضحًا أنه لم يُربَّ جيدًا مثل أخته .. وبصعوبة يمكنك أن تدرك القرابة بينهما . نظرت له الأم نظرة موحية .. وتخيلت أنه جمهور من المشاهدين .. وعرفت يقينًا أن المشهد المسرحى جيد .. فازداد أداؤها افتعالاً ..

كان (جيمس) ـ وهذا اسمه ـ راحلاً إلى (أستراليا) ليجرب حظه .. لأنه كان يتمنى أن يكفل لأمه وأخته المال الذى يجنبهما الصعود إلى خشبة المسرح من جديد ..

ولما كان هذا يومه الأخير فى (لندن) فقد طلب من (سيبل) أن تخرج معه قليلاً للنزهة فى الحديقة .. هرعت الفتاة لترتدى ثيابها . فانفرد هو بالأم يسألها عن هذا الشاب الوسيم الذى يحوم حول أخته ..

ـ « أريد منك أن تراقبى (سيبل) بعناية يا أماه .. أرجوك .. »

ـ « أنت تعرف هذا .. لو كان هذا الشاب ثريًا فلا أرى ما يمنع من أن يتقرب إليها .. أعتقد أنه من الطبقة الأرستقراطية وهذا زواج مناسب لـ (سيبل) .. »

هنا جاءت (سيبل) وقد تأهبت للخروج .. فودع الأم فى فتور ، فلم تشعر براحة من نظرته والصوت الذى ودعها به ..

خرج الشاب وأخته إلى ضوء الشمس الذى تعابثه الريح ، واتجها إلى (أوستون رود) .. وراح المارة يرمقون فى دهشة هذا الشاب المغبر الضخم مبعثر الثياب ، الذى يمشى مع حسناء بارعة الحسن .. فكأنه بستانى يمشى مع زهرة ..

ضايق هذا الفتى .. فهو يمقت أن ينظر له الناس .. ذلك الشعور الذى يعانيه الأذكياء دومًا ..

لكن (سيبل) لم تبد واعية بالأثر الذى يحدثه حسنها .. كانت تحلم بأميرها الجميل لكنها لا تتكلم عنه .. تتكلم عن السفينة التى سيركبها أخوها .. وعن المال الذى سيجمعه .. وعن الوريثة الحسناء التى سينقذها من هجوم قطاع الطرق ذوى القمصان الحمراء .. لأنه لن يظل بحارًا أو سائق عربة .. بل سيودع ربان السفينة ويهبط إلى البر حيث يجد مناجم



وبكياسة راح يحذرها من هذا الشاب المتأنق
الذى يحوم حولها ..

الذهب ، وبعد أسبوع لا أكثر يعود حاملاً قدرًا مليئة بالذهب .. يعود بها فى عربة يحرسها ستة رجال مدججين بالسلاح .. ولكن لا .. لا داعى لمناجم الذهب .. فالناس يختنقون هناك ويضربون بعضهم بالرصاص فى الحانات ، ويقولون ألفاظًا بذيئة .. فليكن فلاحًا طيبًا ينقذ وريثة حسناء يخطفها لص على صهوة حصانه .. بالطبع ستهيم حبًا به ويتزوجان .. ويعودان إلى (لندن) ليعيشا فى بيت جميل ..

عليه فقط ألا يتهور .. ولا يكف عن الصلاة .. إنها لا تكبره فى السن لكنها تعرف كل شىء عن الحياة ..

ظل الفتى يصغى لثرثرتها صامتًا .. كان القلق يغمره عليها ..

وبكياسة راح يحذرها من هذا الشاب المتأنق الذى يحوم حولها .. فهتفت :

- « إن رؤيته تعنى أن تهيم حبًا به .. وإن معرفته تعنى أن تثق بـه .. إنك تتركنى يا (جيم) وأنا فى أسعد وأعز أيام عمرى .. لقد كانت الحياة قاسية علينا لكنها ستختلف .. أنت ذاهب إلى عالم جديد كالذى وجدته أنا فعلاً .. »

جلسا فى الحديقة بين زهور (التيوليب) المتراقصة كحلقات النار .. راحت تمازحه وتداعبه لكنه ظل ساهمًا . بعد قليل قال لها :

ـ « تأكدى ـ مثلما أنت متأكدة من وجود إله ـ أن هذا الفتى لو ضايقك أو آذاك فسوف أقتله به ! »

قالت له والشفقة فى عينيها :

ـ « أنت أحمق يا (جيم) .. طفل سيئ الخلق لا أكثر .. »

ـ « إن أمى غير ذات نفع .. لا تعرف كيف تعنى بك .. ولكم أتمنى ألا أسافر إلى (أستراليا) وأتركك .. »

ـ « أنت لم تعرف الحبّ بعد .. »

وعادا بالحافلة إلى دارهما الحقيرة ، فودعته الفتاة لأنها لابد أن تنام ساعتين قبل صعودها لخشبة المسرح ..

أما هو فراح يتناول عشاءه .. آخر عشاء له فى داره .. بينما الأم تراقبه فى صمت وتوتر ..

كان يكره السادة .. السادة الأرستقراطيين ذوى الأصل العريق .. لقد كان أبوه الذى تخلى عنه وأخته منهم .. واليوم تتحدث أخته عن أميرها الجميل الذى هو سيد أرستقراطى آخر ..

قالت الأم وقد فهمت مخاوفه :

ـ « إن (سيبل) لها أم .. أما أنا فلم يكن لى .. »

لثمها الفتى معتذرًا وقد مست عبارتها قلبه :

ـ « آسف لو كنت آلمتك .. يجب أن أنصرف الآن .. وأكرر .. لو آذى هذا الرجل (سيبل) فلسوف أجده وأقتله ككلب .. »

راق الموقف الميلودرامى للأم بما فيه من إيماءات مسرحية وعبارات رنانة .. شعرت أنها تندمج وكادت تعلو بأدائها لكن الفتى قاطعها .. كان عليه أن يحمل حقائبه إلى العربة .. ويساوم السائق .. وهكذا ضاعت هذه اللحظة فى تفاصيل سوقية ..

لكن الأم كانت تعرف أنها ستجد لحظات مسرحية أمتع ، وهى تخبر (سيبل) أن الحياة تزداد فقرًا وكآبة .. وأنها لم تعد تملك سوى طفل واحد تربيه ، بعد ما رحل ابنها بعيدًا ..

فكرت فى هذا وهى ترمق العربة تبتعد ..

* * *

- ٦ -

- « أحسبك سمعت الأخبار يا (باسيل) ؟ »

قالها لورد (هنرى) فى تلك الأمسية بينما (هولورد) يدخل المطعم ، حيث كان العشاء معدًا على المائدة لثلاثة ..

قال الرسام وهو يناول قبعته ومعطفه للخادم المنحنى ..

- « لا يا (هارى) .. أرجو ألا يكون شيئًا سياسيًا .. فالسياسة لا تثير اهتمامى .. لا يوجد شخص واحد فى مجلس العموم يستحق أن يرسم .. »

قال لورد (هنرى) وهو يتأمله :

- « لقد خطب (دوريان جراى) »

حدق فيه (هو لورد) غير مصدق .. ثم قطب .

- « مستحيل ! »

- « بل هى الحقيقة .. خطب ممثلة مغمورة .. »

- « كنت أحسبه عاقلاً حتى هذه اللحظة .. »

- « حينما يفعل الرجل شيئًا أحمق تمامًا يكون هذا ناجمًا عن دوافع نبيلة ، يبدو أن الصورة التى

رسمتها له قد جعلته يقدر جمال الآخرين .. لسوف نرى الفتاة الليلة لو أن الصبى لم ينس موعده معنا .. »

هنا دخل الفتى .. فرمى معطفه وصافح صديقيه مرددًا :

- « واعزيزى (هارى) ! .. واعزيزى (باسيل) ! .. هنئانى ! .. لم أكن قط أسعد منىّ فى هذه اللحظة .. لقد حدث هذا فجأة .. »

كان فى أوسم حالاته وقد احمرت وجنتاه انفعالاً ..

جلس الأصدقاء حول مائدة العشاء .. وراح الفتى يقول :

- « البارحة بعد ما فارقتك يا (هارى) ذهبت إلى المسرح كدأبى ..

كانت (سبيل) تلعب دور (روزالند) .. كم كانت فاتنة لا توصف ! .. وبعد العرض قصدتها وحادثتها .. وجلسنا معًا .. فى نهاية الجلسة كانت خطبتنا قد صارت حقيقة واقعة .. لكنها سرّ لا تعرفه أمها ذاتها .. لا أدرى ما سيقوله حارس تركتى لورد (رادلى) .. لكنى دنوت من سن المسئولية القانونية وبعدها سأفعل ما يروق لى .. لقد وجدت زوجتى بين مسرحيات (شكسبير) .. والشفتان اللتان علمهما (شكسبير) الكلام قد همستا بسرهما فى مسمعى .. »

جرع لورد (هنرى) الشمبانيا متأملاً .. وسأله :

- « متى ذكرت لفظة (زواج) يا (دوريان) ؟ وبم ردت الفتاة ؟ »

- « يا عزيزى (هارى) .. لم يتم الأمر كصفقة تجارية .. ولم أقدم لها عرضًا رسميًا .. قلت : إننى أحبها فقالت : إنها لاتستحق أن تكون زوجتى .. »

غمغم لورد (هنرى) .

- « النساء عمليات حقًا .. عمليات أكثر منا بمراحل .. فى مواقف كهذه لانذكر نحن حرفًا عن الزواج لكنهن يذكرننا به .. ! »

ضحك (دوريان) وقال :

- « حين ترى (سيبل) يا (هارى) ستؤمن بأن الرجل الذى يؤذيها هو حيوان .. حيوان بلا قلب .. أريد أن أضعها على عرش من ذهب ليعبد العالم تلك المرأة التى هى لى .. ماهو الزواج ؟ إنه قسم لايُحنث به .. أريد أن أقسم هذا القسم .. ثقتها بى تجعلنى مخلصًا .. وإيمانها بى يجعلنى طيبًا .. وحين أكون معها أنسى كل نظرياتك الخلابة السامة .. »

ثم تنهد وقال :

- « إننى أهيم بها .. »

قال لورد (هنرى) وهو يعبث ببعض الفاكهة .

- « هذا خير من أن تهيم هى بك .. فهذا يغدو مزعجًا .. إن النساء يعاملن الرجال كأصنام .. يهمن بهم ثم يضايقنهم طوال الوقت بمطالب لاتنتهى »

غمغم الفتى بجدية :

- « حين يطلبن منا أشياء فهن يقدمن لنا أشياء أكثر .. ومادمن قد زرعن الحب فى أرواحنا فمن حقهن أن يطالبن باسترداده .. »

قال (هولورد) :

- « هذا هو الصواب بعينه .. »

فقال لورد (هنرى) :

- « لاشىء هو الصواب بعينه .. أيها الساقى .. هات لنا القهوة وبعض لفافات التبغ .. »

قال (دوريان) وهو يتأمل ما جلبه الساقى :

- « هلما إلى المسرح لتريا (سيبل) ، عندها ستفهمان معنى المثالية .. »

* * *

— ٧ —

لسبب ما كان المسرح مكتظًا تلك الليلة ، وقابلهم المدير اليهودى البدين على الباب بابتسامة لزجة ملأت وجهه .. واصطحبهم إلى مقاعدهم فى تواضع فخور ، وهو يلوح بأصابعه السمينة المكتنزة بالمجوهرات ، ويتكلم بأعلى صوته ..

بدا على (دوريان) أنه يشمئز منه حقًا .. لكن لورد (هنرى) أحبَّ الرجل على الفور . كان الحرّ خانقًا والعرق يغمر الوجوه .. والناس الذين خلعوا معاطفهم يثرثرون بصوت عال ..

قال لورد (هنرى) :

— « ياله من مكان تجد مثلك الأعلى فيه ! »

ردّ (دوريان) :

— « نعم .. فقد وجدتها هنا .. وحين تمثل أنسى كل شىء ، وحتى هؤلاء القوم السوقيين ذوى الإيماءات الفظة يغدون شيئًا آخر حين تمثل هى .. إنها تجعلهم يتجاوبون معها كأوتار كمان .. يبكون حين تبكى ويضحكون حين تضحك .. »

مرّ ربع ساعة من الضوضاء .. ثم ظهرت (سيبل فين) على المسرح .. نعم .. كانت هى أجمل مخلوق رأته عينا لورد (هنرى) بالقطع . ثمة شىء خلاب فى حيائها .. ومسحة حمرة كظل وردة فى مرآة من الفضة وهى ترمق الحشد ..

وكأنما فى حلم ، جلس (دوريان جراى) يحدق فيها صامتًا .. أما لورد (هنرى) فراح يرمقها عبر منظاره المقرب مغمغمًا :

— « فاتنة ! .. فاتنة ! »

كان المشهد هو حديقة (كابيوليه) فى مسرحية (روميو وجولييت) .. وقد دخل (روميو) فى ثياب الحجاج إلى خشبة المسرح .. وراح جمع من الممثلين بثياب رخيصة سخيفة يرقصون .. بينما تحركت الفتاة بينهم كأنما هى مخلوقة من عالم أسمى .. يداها من العاج .. ومنحنيات رقبتها كمنحنيات زهرة السوسن ..

لكنها حين قالت مقطعها الأول من الشعر :

« أيها الحاج الكريم ، إنك لتظلم يدك ..
التى لم تزد على أن قدمت بهذا نسكًا تقيًا ..
فإن للقديسات أيديًا تمسها أيدى الحجيج ..

ومس الراح للراح قبلة حاج طاهر .. » (*)

كان أداؤها مفتعلا تمامًا .. صوتها كان عديم اللون جرّد الشعر من كل روح فيه .

ولم يجرؤ الرجلان على مصارحة (دوريان) برأيهما .. خاب أملهما بشكل مروع .. وأدركا أن الفتاة لاتملك أية موهبة .. لكن لينتظرا مشهد الشرفة فى الفصل الثانى لأنه هو المحك لقياس موهبة أى (جولييت) ..

وبالفعل كانت الفتاة فاتنة حين برزت فى ضوء القمر .. لكن مسرحية تمثيلها كانت لا تحتمل .. إيماءاتها صناعية تمامًا .. كأنما هى طالبة صغيرة تقوم بالتسميع أمام أستاذ محفوظات غير مجيد .. كانت فاشلة تمامًا ..

وبدأ ملل الجمهور وصفيره يتزايد .. وبدأت المحادثات الجانبية ، فنهض (هنرى) وارتدى معطفه ، وقال لـ (دوريان) :

- « إنها فتاة جميلة حقًا لكن لا علاقة لها بالتمثيل .. هلم ننصرف .. »

(*) الأبيات ترجمة الأستاذ (مؤنس طه حسين) - مسرحية (روميو وجولييت) - دار المعارف - ١٩٦٠

قال الفتى فى صوت مرير ..

- سأشاهد المسرحية بأكملها .. وإن كنت أعتذر لكما .. لا أعرف ماذا دهاها .. تبدو لى باردة تمامًا .. تغيرت عما كانته بالأمس .. لم تعد تلك الفنانة العظيمة ولا أعرف السبب .. »

قال (هولورد) مخففًا عنه :

- « لا عليك يا (دوريان) .. إن الحب لأكثر أهمية من الفن .. »

قال لورد (هنرى) :

- « الحب والفن كلاهما ببساطة - نوع من التظاهر .. ولكن دعنا لانبق أكثر يا (دوريان) .. ماذا يهم فى كل هذا ؟ .. إن فتاتك حسناء ولو كانت معرفتها بالحياة تعادل معرفتها بالفن فإنها خبرة سارة حقًا .. إن الناس الجديرين بالمعرفة هم أولئك الذين يعرفون كل شىء والذين لايعرفون أى شىء .. هلما نقصد النادى .. »

لكن الفتى لم يردّ .. سال الدمع من عينيه وأسند رأسه للحائط .. فلم يجد الرجلان مناصًا من تركه والانصراف احترامًا لحزنه ..

وحين انتهت المسرحية - وسط الصفير والتذمر - هرع إلى الكواليس ليراها .. كانت واقفة والنصر

يرتسم على ملامحها .. وعيناها تضيئان بنار متوهجة .. سألته :

ـ « هل كان أدائى شيئًا الليلة يا (دوريان) ؟ »

ـ « مريعًا .. ! .. هل أنت مريضة ؟ لقد كان هذا أسوأ ما رأيت »

ابتسمت وبصوت موسيقى رنان نادته :

ـ « (دوريان) .. حسبتك فهمت .. »

ـ « فهمت ماذا ؟ »

ـ « قبل أن أعرفك كان التمثيل حياتى .. كانت أفراح (بياتريس) هى أفراحى وأتراح (كورديليا) أتراحى .. والديكورات هى عالمى .. ثم جئت أنت ـ أيها الحب الجميل ـ لتحرر روحى من ربقتها .. وهنا أدركت للمرة الأولى أن ضوء القمر على المسرح كان صناعيًا ، وأن كلمات الحب التى أقولها لم أقلها أنا بل كتبها سواى ، وأن الديكور سوقى ركيك .. أنت جلبت لى شيئًا أروع .. شيئًا ليس الفن بالقياس إليه سوى انعكاس .. يا حبى ! .. يا حبى ! .. يا أميرى الجميل ! .. لقد سمعت الجمهور يصفر استهجانًا لكنى قلت لنفسى : ماذا يعرف هؤلاء عن حب عظيم كحبى ؟! خذنى بعيدًا عن المسرح يا (دوريان) ..

أنا أمقته .. يمكننى دومًا أن أصطنع ما لا أشعر به لكنى لن أصطنع أبدًا عاطفة يحرقنى لهيبها .. أنت علمتنى هذا كله .. »

ألقى بجسده على الأريكة وأبعد وجهه عنها .. وغمغم :

ـ « أنت قتلت حبى .. ! »

نظرت له بدهشة .. دنت منه وركعت على ركبتيها أمامه .. ثم رفعت كفه ولمستها بشفتيها .. لكنه ابتعد عنها وارتجف ..

ثم إنه نهض قاصدًا الباب صارخًا :

ـ « نعم قتلت حبى .. كنت تحركين خيالى .. لكنك الآن لن تحركى حتى فضولى .. كنت أحبك لأنك فهمت خيال الشعراء العظام ولأنك منحت ظلال الفن شكلاً وملمسًا .. أنت غبية ضحلة .. رباه ! .. كم كنت مجنونًا حين هويتك .. ! لن أراك بعد اليوم ، ولن أفكر فيك .. وياليتنى لم أرك قط .. فمن دون فنك أنت لا شىء سوى فتاة ذات وجه وسيم .. »

شحبت الفتاة وارتجفت .. واحتبس الصوت فى حلقها .. دنت منه ولمست يده ، لكنه أبعدها فى جنون :

ـ « لا تلمسينى ! »

صدرت منها أنة خفيضة وألقت بنفسها على قدميه ، وهمست :



نظرت له بدهشة .. دنت منه وركعت على ركبتيها
أمامه .. ثم رفعت كفه ولمستها بشفتيها ..

– « (دوريان) .. (دوريان) .. لا تتخل عنى ..
أنا آسفة إذ لم أؤد دورى جيدًا .. لكننى سأحاول ثانية ..
أعدك بهذا .. كان هذا أقوى منى .. لكننى سأكون
أفضل فيما بعد .. أنا حقًا راغبة فى إرضائك .. فلا
تكن قاسيًا معى لأنى أهواك بكل جوانحى »

وخنقتها نوبة من العبرات .. فانثنت على نفسها
كطير جريح .. لكن (دوريان) راح يرمقها بعينيه
الجميلتين فى لا مبالاة .. ثمة شىء سخيف فى عواطف
الناس الذين كف المرء عن حبهم .. لهذا بدت له
(سيبل) ميلو درامية إلى حد يثير الاشمئزاز ..

ظلت تبكى فى صمت وامتدت يداها الصغيرتان
أمامها كأنما تبحث عنه .. لكنه أدار وجهه وانصرف ..

إلى أين مشى ؟ لا يدرى .. فقط كان يمشى فى
شوارع سيئة الإضاءة بين سكارى يترنحون كالقرود ..
ونسوة ينادينه بصوت خشن وضحكات رقيعة .. وسمع
صرخات وسبابًا ..

بعد جهد أدرك أنه الفجر .. وأنه فى حديقة
(كوفنت) .. ورائحة الهواء تعبق بالورود .. ..
فاستقل عربة إلى داره ..

دخل إلى غرفة نومه ، وأدار مقبض الباب .. هنا وقعت عيناه على لوحة (باسيل) التى رسمها له .. أصابته الدهشة .. فك زرًا من أزرار سترته ثم غالبه التردد فعاد يرمق الصورة من جديد ..

وفى الضوء المعتم المتسرب عبر الستائر ذات لون القشدة ؛ بدا له كأنما الوجه قد تغير نوعًا .. يمكن للمرء أن يقول : إن هناك مسحة من القسوة على شفتيه فى الصورة .. إن هذا لغريب ..

مشى إلى النافذة وأزاح الستارة .. فتسرب الفجر البراق ليغرق الحجرة .. لكن مسحة القسوة فى اللوحة ازدادت وضوحًا .. كأنما هو يرمق وجهه فى المرآة بعد اقتراف عمل شنيع ..

ما معنى هذا ؟ أحضر عدسة يتفحص بها اللوحة .. بالتأكيد لم يتخيل هذا .. إن التعبير واضح ..

تذكر أمنيته التى قالها لـ (باسيل) فى المرسم .. لقد تمنى أن تشيخ اللوحة بدلاً منه ويحتفظ هو بنضارته .. هل تحققت هذه الأمنية ؟ مستحيل .. هذه الأشياء لا تحدث أبدًا ..

ولكن هناك هذه القسوة حول ثغر الصورة .. قسوة !..

هل كان قاسيًا حقًا ؟ .. لقد كان هذا خطأ الفتاة وليس خطأه هو ، لكن منظرها وهى عند قدميه تبكى جعله يشعر بندم ما .. لكم كان قاسيًا معها .. ولكنه تعذب هو الآخر .. لقد عاش قرونا من الألم ودهورًا من العذاب خلال الساعات الثلاث التى استغرقها العرض .

ثم إن النساء يتحملن الأسى خيرًا من الرجال .. وهن لا يقعن فى الغرام إلا لحاجتهن إلى مشاهد تمثيلية ميلودرامية يشبعن فيها ألمًا ..

ولكن .. الصورة .. الصورة التى علمته كيف يعشق جماله .. فهل ستعلمه كيف يحتقر روحه ؟ هل ستحمل هى وزر آثامه ؟

لا .. لن يحدث هذا .. سيعود لـ (سيبل) .. سيستعطفها .. يطلب منها أن تتزوجه ويحاول أن يهواها .. هذا واجبه .. لكم كان قاسيًا مع البائسة .. لكن الأمور ستعود كما كانت ..

أحضر ستارًا كبيرًا دارى به الصورة كى لا يراها ..

وقف أمام النافذة يتنسم هواء الصباح الطازج .. وراح يردد اسم (سيبل) مرارًا وتكرارًا .. وقد أحس أن الطيور فوق أشجارها المبللة بالندى تهمس بكل شىء عن (سيبل) للزهور ..

* * *

- ٨ -

كان الوقت قد جاوز الظهيرة حين صحا من نومه ..
وبعد ما تسلل وصيفه على أطراف أصابعه مرارًا ليرى ما إذا كان يتحرك ، ويتساءل عن سرّ إغفاء سيده حتى هذه الساعة المتأخرة ..

فى النهاية دق الجرس فدخل الوصيف الحجرة حاملاً صينية من (السيفر) الصينى عليها قدح من الشاى ، ورزمة من الخطابات .. ، وأزاح الستائر زيتونية اللون المصنوعة من الساتان ، وقال باسمًا :

- « لقد نام السيد طويلاً .. إنها الواحدة والربع ظهرًا .. »

هبّ الفتى مذعورًا .. لكم تأخر الوقت !.. نهض وراح يطالع بريده .. كانت ذات الخطابات التى تحوى دعوات للعشاء .. وبرامج لأعمال الخير .. وما إلى ذلك .. ثمة فاتورة لطاقم حمام من طراز (لويس كينزى) عليه أن يرسلها إلى الوصى على إرثه كى يسددها ..
إن هذا الوصىّ رجل من طراز عتيق ولن يفهم أبدًا

أن - فى هذا العصر - تغدو الأشياء غير الضرورية هى الضرورة ذاتها ..

جلس فى المكتبة يتناول إفطارًا فرنسيًا خفيفًا على مائدة وضعت له جوار النافذة المفتوحة .. كان الهواء الدافئ محملاً بالعطر .. وحلقت نحلة حول حوض الزهور أمامه .. فشعر بسعادة قصوى ..

فجأة رأى الستار الذى دارى به الصورة .. وتصلب ..

هل كان كل هذا حقيقيًا ؟ .. هل تبدلت الصورة حقًا ؟ ليرى ذلك إذن .. كان الخادم قد جلب له القهوة ولفافات التبغ ، فأحس برغبة تحدوه إلى أن يسأله البقاء .. كان خائفًا من اليقين ..

لكن الرجل غادر الغرفة .. فنهض (دوريان) .. أشعل لفافة تبغ ووقف يتأمل الستار .. ما الذى يحدوه إلى إزاحة الستار ؟ لو كان حقًا فإنه لشىء مريع .. ولو كان وهمًا فما جدوى التأكد منه ؟ .. لكن الحقيقة مهما كانت مريرة خير من هذا الشك الشنيع ..

أزاح الستار .. وعندها أدرك أنه لم يكن واهمًا ..

لقد تغيرت الصورة ..

تراجع إلى الوراء ليجلس على الأريكة ، ويرمق الصورة فى ذعر مريض ..

إذن فهذا الرسم يحدثه عن آثامه .. يمكن أن يكون هو دليله فى فيافى الحياة كما يفعل الضمير ..

لم يعد يدرى كيف يفكر .. ولا ماذا يعمل .. فى النهاية ذهب إلى المكتب ، فكتب خطابًا إلى حبيبته يطلب غفرانها ويتهم نفسه بالخبال .. إنها متعة لوم النفس الشهيرة .. حين نلوم أنفسنا نشعر أنه ما من أحد سوانا يستحق أن يلومنا .. إن ما يمنحنا الخلاص هو الاعتراف وليس القس الذى نعترف أمامه .. وهكذا حين فرغ (دوريان) من الكتابة كان قد غفر لنفسه ذنوبه ..

هنا سمع قرعات على الباب ، وصوت لورد (هنرى) يطلب الدخول .. وما إن دخل الرجل حتى قال :

- « أنا آسف يا (دوريان) .. ولكن لا يجب أن تفكر فيما حدث كثيرًا .. »

- « تعنى (سيبل) ؟ »

- « نعم .. » - وخلع قفازيه ببطء وجلس - « لكن الأمر لم يكن خطأك .. لقد قابلتها بعد المسرحية طبعًا .. وتشاجرت معها .. »

- « كنت متوحشًا يا (هارى) .. لكنى الآن خير حالاً .. سأتزوجها ! »

نظر له اللورد فى دهشة .. ووقف متسائلاً :

- « تتزوجها ؟ .. لكن يا (دوريان) ... »

- نعم يا (هارى) .. أنا متأكد من أنك ستذكر رأيًا مروعًا فى الزواج .. فلا تقلها .. لقد طلبت يدها منذ يومين ولن أتراجع .. »

نظر اللورد عاجزًا عن قول شىء .. ثم هتف :

- « إذن لم تعلم بعد ؟ »

- « أعلم ماذا ؟ »

نهض اللورد ليعبر الحجرة ويجلس أمام (دوريان) ، فيتناول يديه بين كفيه ويقول :

- « (دوريان) - إهدأ قليلاً - لقد ماتت (سيبل فين) ! »

صرخة ألم خرجت من شفتى الفتى وهو ينهض محررًا يديه :

- « ماتت ؟ (سيبل) ماتت ؟ هذا ليس حقًا ! كيف تجرؤ ؟ »

- « للأسف هذا صحيح .. » - قال اللورد بجدية - « .. كل هذا فى صحف الصباح .. سيكون هناك تحقيق ولا أريد لاسمك أن يقحم فى كل هذا .. إن هذه الأشياء تجعلك (موضة) فى (باريس) .. لكنها هنا فى (لندن) فضيحة .. هل يعرفون اسمك فى المسرح ؟ »

لم يجب (دوريان) .. كانت شفتاه ترتجفان والرعب يجتاحه :

- « (هارى) .. هل قلت (تحقيق) ؟ هل (سيبل) ؟ لا أتحمل هذا يا (هارى) لكن تكلم سريعًا .. »

قال لورد (هنرى) :

- « أنا واثق من أن الأمر لم يكن حادثًا .. وجدوها فى غرفة الثياب ميتة .. ابتلعت مادة ما تستعمل فى المسارح .. لا أعرف كنهها لكنها بالقطع تحوى الرصاص الأبيض أو حمض (البروسيك) .. »

صرخ الفتى :

- « (هارى) ! هذا شنيع ! »

- « نعم هذا شنيع .. لكن عليك ألا تزج بنفسك فى هذا .. أريد منك أن تأتى للعشاء معى ثم نذهب إلى الأوبرا .. يمكنك أن تحضر فى مقصورة أختى .. لسوف تكون معها بعض النسوة الجذابات .. »

لم يرد (دوريان) .. بل هتف :

- « إذن أنا قتلت (سيبل) .. كأننى نبحت عنقها الصغير بسكين .. وبرغم هذا لم يقل جمال الزهور ، ولم تكف البلابل عن الغناء فى حديقتى .. كم أن

الحياة مأساة ! .. والخطاب الذى كتبته .. أول خطاب حب أكتبه لا مرأة فى حياتى هو خطاب لفتاة ميتة .. أتراهم يحسون يا (هارى) ؟ .. أولئك القوم الصامتون الشاحبون الذين نسميهم موتى ؟ .. أتشعر يا (هارى) أو تسمع ما أقول ؟ كانت كل شىء لى .. والآن ولت .. ومعها ولت آخر فرصة لى كى أستقيم .. »

قال اللورد بطريقته الباردة التحليلية :

- « ثمة فتاة قتلت نفسها من أجل حبك .. أتمنى لو كانت لى تجربة مماثلة .. إن النساء اللواتى همن بى - ولسن كثيرات - أصررن على الحياة طويلاً بعد ما كففت وكففن عن الشعور بالحب .. إنهن يعزين أنفسهن بارتداء ألوان عاطفية .. لا تثق بامرأة ترتدى اللون البنفسجى فى أى سن .. ولا تثق بامرأة تجاوزت الخامسة والثلاثين وتضع شرائط وردية فى شعرها .. معنى هذا أن لها ماضيًا .. ، ولكن (سيبل فين) تختلف .. إن موتها يجعلنى أعيد النظر فى كل ما كنت أتهكم عليه .. الرومانسية - الحب - الهوى »

ثم أردف وهو يشعل سيجارًا بعلبة ثقاب مذهبة :

- « إن الفتاة لم تعش حقًا قط .. لهذا هى لم تمت قط .. يمكنك أن تنتحب على (أوفيليا) أو تضع

التراب فوق رأسك بسبب خنق (كورديليا) لكن لا تذرف دمعة على (سيبل) .. إنها أقل وجودًا حقيقيًا من كل بطلات (شكسبير) اللواتى لعبت دورهن ..»

كان المساء يدنو .. ودون جلبة ويقدمين من فضة زحفت الظلال من الحديقة ..

لقد نجحت كلمات لورد (هنرى) فى تهدئة ذعر الفتى وتوتره ..

فى النهاية قال (دوريان) :

ـ «سأذهب إلى الأوبرا .. لكنى لن آكل شيئًا .. ماهو رقم مقصورة أختك ؟ ..

ـ .. سبعة وعشرون .. ستراه على الباب مع اسمها ..»

وشكره (دوريان) فى حرارة قائلاً : إنه خير صديق له . فردّ هذا :

ـ «ما زلنا فى بداية صداقتنا يا (دوريان) .. تذكر أن (باتى) تغنى فى الأوبرا هذه الليلة ..»

فما إن انصرف اللورد حتى هرع (دوريان) نافد الصبر ليزيح الستار عن الصورة .. لا .. لم يحدث تبدل جديد .. لابد أن خطوط القسوة التى تحيط بالفم ظهرت فى ذات اللحظة التى تجرعت فيها الفتاة السم .. ليت بوسعه أن يرى التغير أمام عينيه ..

مسكينة (سيبل) ! ما أروعها من قصة رومانسية ! كيف لعبت هذا المشهد الأخير المروع ؟ هل لعنته قبل الموت ؟ لن يفكر فى هذا .. سيفكر فيها كشخصية عظيمة ظهرت على مسرح الحياة لتظهر روعة الحب العظمى .. ولسوف ينسى وجهها الطفولى الذى تخلت عنه فى تهور ..

إن صورته ستلعب دور المرآة المسحورة .. لن تظهر وجهه بل ستظهر روحه .. ولسوف تتجعد الصورة وتضمر لكنه سيظل بنضارته ذاتها ، ولن يفقد زهرة من زهور صباه ..

وهكذا أعاد تغطية اللوحة ..

وبعد ساعة كان جالسًا فى (الأوبرا) جوار اللورد (هنرى) ..

* * *

- ٩ -

بينما كان يتناول الإفطار في الصباح التالي ؛ ظهر (باسيل هولورد) ..

قال الرسام في حزن :

- « سرني أن وجدتك يا (دوريان) .. جئت البارحة فقالوا لي : إنك في الأوبرا .. بالطبع عرفت أن هذا مستحيل .. وقضيت ليلة مفزعة أتوقع فيها أن تتبع المأساة مأساة أخرى .. قرأت الحادث بالمصادفة في جريدة (جلوب) وجدتها في النادي .. إنك لن تتصور كم تحطم فؤادي لهول ما جرى . ولكن أين كنت أنت ؟ هل ذهبت لتلتقي أم الفتاة ؟ كدت ألحق بك لكني لم أرد إقحام نفسي في حزن لا أستطيع تخفيفه .. مسكينة تلك المرأة ! .. ماذا قالت لك ؟ »

غمغم (دوريان) وهو يرشف النبيذ من كأس من الزجاج الفينيسي مذهب الحافة :

- « كيف لي أن أعرف ؟ لقد كنت في الأوبرا بالفعل .. كان يجب أن تكون معنا هناك .. لقد قابلت ليدي (جويندولين) أخت (هاري) ، وهي امرأة فاتنة ..

وغنت (باتي) كما لم تغن من قبل .. والآن دعنا لانتكلم عن الأمور السيئة .. فالمرء إن لم يتكلم عن شيء فلا وجود لهذا الشيء »

قال الرسام ببطء ، وقد بدا ألم ما في صوته :

- « .. أنت ذهبت إلى الأوبرا ؟ .. ذهبت إليها بينما (سيبل فين) ترقد في مشرحة ما ؟ تتحدث عن فتنة النساء و(سيبل) لم تعرف بعد ظلمات القبر وسكونه ؟ »

- « كف يا (باسيل) ! ما قد فات قد مات .. »

- « (دوريان) ! .. هذا مريع .. شيء ما قد غيرك تمامًا .. ما زلت تبدو ذات الشباب الوسيم الذي كنت أجد فيه أكثر الشباب طهرًا في هذا العالم .. اليوم تتحدث كأنما لا عاطفة فيك .. وهذا تأثير (هاري) الضار عليك .. »

صاح (دوريان) :

- « إن القوم الضحلين فحسب هم من يحتاجون إلى أعوام كي يتخلصوا من عاطفة .. إنما الانسان سيد نفسه هو من يستطيع أن ينهي حزنًا بالسهولة التي يخلق فيها مسرة .. لن أكون عبدًا لعواطفي .. بل أريد أن أحكمها .. أن أستمتع بها .. »



واتجه فى عصبية تجاه اللوحة .. لكن (دوريان) - وثب ليقف بين الرسام والستار ..

لم يستطع الرسام أن يوجه مزيدًا من اللوم للفتى .. لربما كانت لامبالاته هى نتيجة للصدمة .. فما زال في الفتى كثير من الطيبة والنبل ..

بعد قليل تساءل :

- « وهل الشرطة لاتعرف اسمك ؟ لا أريد أن تقحمك فى الأمر .. »

- « إن الفتاة لم تذكره قط .. كانت تسمينى لدى أسرتها بـ (الأمير الجميل) .. وقد كان هذا لطيفًا منها .. »

هنا تصلب الرسام ونظر إلى الستار الذى يدارى اللوحة .. وصاح :

- « هل داريتها ؟ إن هذا لمهين .. كنت أشعر من البدء أن الغرفة مختلفة .. لماذا أخفيت خير عمل لى هكذا ؟ »

واتجه فى عصبية تجاه اللوحة .. لكن (دوريان) وثب ليقف بين الرسام والستار .. وصرخ فى هلع وقد شحب لونه :

- « باسيل) .. لا أريد أن تنظر لها .. ! »

تساءل الرسام ضاحكًا :

- « لا أنظر إلى لوحتى ؟ لا يمكن أن تكون جادًا .. »

- « لو حاولت يا (باسيل) فلسوف تنتهى صداقتنا أبدًا .. وأقسم بشرفى ! »

ضرب البرق (باسيل) .. فنظر بذهول إلى (دوريان) .. لم ير الفتى غاضبًا بهذا الشكل من قبل .. كان يرتجف انفعالا ..

قال الرسام ببرود وهو يبتعد عن اللوحة قاصدًا النافذة :

- « حسن .. لكنى لا أرى سببًا محترمًا يمنعنى من رؤية لوحتى ؛ التى كنت سأعرضها فى (باريس) الخريف القادم .. إنها بحاجة إلى طبقة ورنيش .. »

- « تعرضها ؟ .. تعرضها ؟ »

- « نعم .. فى معرض خاص بى فى (رودى سيز) .. ما دمت تضع لوحتى وراء ستار فلا أخالك ستفتقدها كثيرًا .. »

مرّر (دوريان) كفه على جبينه ليزيل العرق .. وهتف :

- « لكنك قلت : إنك لن تعرضها أبدًا .. قلتها مرارًا .. »

دعاه الرسام إلى الجلوس وقال له :

- « عندما رسمت هذه اللوحة شعرت بأنك فيها حقًا .. وأن روحى قد تركت بصماتها عليها حتى إنها

تفضح ذاتى .. إن الفن قلما يعبر عن الفنان .. لكن هذه الصورة عبرت عنى حتى صرت أخجل من أن يراها الناس .. ثم إن اللوحة انتقلت إلى حوزتك .. فبدأت أشعر بأننى كنت أحمق حين ظننت أنها تحوى الكثير من روحى .. وخطر لى أن أعرضها فى (باريس) .. لكننى الآن أوافقك على رفضك لهذا .. وإننى لأفضل أن أخسر لوحة على أن أخسر صديقًا .. »

ثم إن الرسام ودعه .. واعتذر على إلحاحه ..

مسكين (باسيل) .. ما أقل ما يعلم .. !

تنهد (دوريان) وقرع الجرس .. إن الصورة يجب أن تدارى بأى ثمن .. كان من الحمق منه أن يترك اللوحة فى غرفة يصل إليها أصدقاؤه .. ويدخلونها ..

★ ★ ★

- ١٠ -

حين دخل الخادم تأمله (دوريان) متسائلاً .. أيكون قد حاول النظر خلف الستار ؟ أشعل (دوريان) لفافة تبغ .. وظل يرمق وجه الخادم الجامد الذى ينتظر الأوامر .. كلا .. لا داعى للخوف منه ..

طلب منه أن يستدعى مديرة المنزل .. وجاءت المرأة العجوز فطلب منها أن تعطيه مفتاح غرفة الدراسة ..

- « لكن الغرفة مهملة منذ خمس سنوات .. منذ توفى جدك .. ولسوف تكسوك خيوط العناكب لو دخلتها .. لابد من أن أنظفها أولاً »

امتعض (دوريان) حين ذكر اسم جده بما يحمله من ذكريات سيئة .. لكنه كرر الأمر للمرأة فناولته المفتاح مترددة ..

حين خرجت المرأة ، دس المفتاح فى جيبه .. وبحث فى الحجرة حتى استقرت عيناه على غطاء من الساتان الأرجوانى .. قطعة من تحف القرن السابع عشر وجدها جده فى (بولونيا) .. لابد أنها ستصلح ليغلف بها الشيء .. كانت يوماً ما غطاء للموتى .. اليوم تصلح غطاء لمن تعفنت روحه .. دنا من

اللوحة ونزع عنها الغطاء .. لم تكن قد تغيرت .. ما زال الشعر ذهبيًا والعينان زرقاوين والشفتان الورديتان كما هما .. لكن التعبير قد تغير .. المزيد من القسوة على الوجه .. إن روحه تبرز له من وراء الستار تدعوه إلى المحاكمة ..

غطى اللوحة بغطاء الساتان إذ سمع قرعة على الباب .

صوت الخادم يقول :

- « إنهم ها هنا يا سيدى .. »

ومن الباب دخل (هوبارد) صانع الإطارات الشهير ، ومعه مساعد خشن المظهر .. كان (هوبارد) شابًا محتقن الوجه يتعامل مع الفنانين بكثرة ..

- « ماذا بوسعى أن أقدم لك يا مستر (جراى) ؟ »

قالها وفرك يديه السمينتين ..

- « لم أكن أريد أن أتعبك يا مستر (هوبارد) .. كل ما هناك أن لدى لوحة أريد نقلها إلى الطابق العلوى ، وهى ثقيلة جدًا لذا أردت أن أقترض رجلين من رجالك .. »

وأشار إلى اللوحة .. وقال :

- « هى ذى .. أريد نقلها مغطاة .. فلا أبغى لها أن تخدش فى أثناء النقل »

وافق (هوبارد) وتعاون مع مساعده على فك اللوحة من السلاسل النحاسية التى كانت معلقة منها .. ثم بدأ الصعود فى الدرج .. وبرغم احتجاج مستر (هوبارد) الذى يمقت ككل التجار أن يرى أحد السادة يمارس عملاً مفيدًا ؛ فإن (دوريان) وضع يديه على اللوحة ليعين الرجلين ..

قال الشاب وقد وصلوا إلى الغرفة :

ـ « حقًا هى ثقيلة يا سيدى .. »

فتح (دوريان) الباب .. باب الغرفة التى سيخفى فيها سر روحه عن العيون .. الغرفة التى لعب فيها طفلاً ودرس فيها مراهقًا .. كم يتذكر كل هذا .. طفولته الوحيدة تعود لذاكرته .. كتبه .. لعبه .. اللوحات على الجدار ..

هنا لن يرى أحد اللوحة حتى هو .. لماذا يرى التخريب المخيف لروحه ؟ لماذا يرى وقع السنين والآثام على هذا الوجه ؟

تساءل (هوبارد) فى أدب :

ـ « ألنا أن نرى هذه التحفة يا سيدى ؟ »

نظر له (دوريان) .. وكاد يثب ليخنق الرجل لو جرؤ على نزع الستار ..

ـ « لا .. لن تروق لك .. »

وشكرهما طالبًا منهما الرحيل ..

وحين تلاشى صوت أقدامهما ؛ أغلق (دوريان) الباب بالمفتاح ، ووضع هذا فى جيبه ..

عاد إلى المكتبة ليجد أن الساعة تجاوزت الخامسة ، وأن الشاى قد وضع على المائدة الصغيرة .. وكان هناك خطاب من لورد (هنرى) وكتاب رث الحال قليلا مجلد بلون أصفر .. وجريدة (الجازيت) ..

صب لنفسه الشاى مفكرًا .. إن اختفاء اللوحة سيثير فضول الخادم .. من يدرى ؟ لربما وجده ذات ليلة يحاول اقتحام الغرفة بالطابق العلوى ليشبع فضوله .. إن هذا مريع .. لكم سمع عن خدم ابتزوا سادتهم بعدما قرءوا خطابًا .. أو سمعوا محادثة .. أو وجدوا زهرة تحت وسادة ..

فتح الجريدة ليتصفحها .. فوجد خبرًا فى الصفحة الخامسة يقول :

« التحقيق بخصوص ممثلة .. قام المشرح الشرعى مستر (داينى) بتشريح جثة ممثلة شابة تدعى (سبيل فين) .. كان موتها قد أثار شبهة انتحار قوية .. وقد كانت أم الفقيدة منهارة تمامًا فى أثناء استجوابها »

عبس وجهه ومزق الجريدة إربًا .. يا لقبح هذا الأمر كله ! ثم تناول الكتاب الذى عرف أن لورد (هنرى) قد أرسله إليه ليقرأه ..

تمدد على الأريكة وراح يقلب الأوراق .. وسرعان ما غاب وسطها .. كان هذا أعجب كتاب قرأه في حياته .. أشياء لم يحلم بها تتضح أمام عينيه لحظة فلحظة .. كان يدور حول رجل باريسي من القرن التاسع عشر يحاول أن يعيش كل شهوات وأفكار القرون الغابرة .. وقد كتب الكتاب بأسلوب رفيع مجدول كسلاسل الذهب بقلم أفضل فناني المدرسة الرمزية الفرنسية .. وراح يتقلب بين الرؤى الصوفية العليا وأعمق الغرائز الآدمية ..

لقد كان كتابًا سامًا ..

وجاء المساء فلم يعد قادرًا على مواصلة القراءة .. وأخيرًا جاء الخادم ليذكره بموعد العشاء . فنهض ليرتدي ثيابه ..

وفي النادي كان لورد (هنري) جالسًا ينتظره وقد بدا عليه القلق .. فقال له معتذرًا :

- « آسف لتأخري .. لكن كتابك قد فتنني .. لم يرق لي لكنه فتنني .. هناك فارق كبير بين الكلمتين .. »

غمغم لورد (هنري) وهو ينهض معه لدخول قاعة الطعام .

- « آه ! .. أنت كذلك لاحظت هذا الفارق .. »

★ ★ ★

- ١١ -

ولأعوام طوال لم يستطع (دوريان جراي) أن يتحرر من تأثير هذا الكتاب ..

أو - ربما - لم يحاول قط أن يتحرر منه ..

وغدا بطل الكتاب الباريسي الذي جمع بشكل غريب بين الرومانسية والأسلوب العلمي ؛ هو القدوة التي تحرك حياة (دوريان) .. كأن الكتاب يحوي قصة حياته هو من قبل أن يعيشها ..

لكن (دوريان) كان يختلف عن بطل القصة .. فهو لم يكن يهاب المرايا التي يرى فيها وجهه .. لقد ظل محتفظًا .. بجماله الخلاب الذي يبهر الجميع .. وحتى من بدءوا يسمعون عن أعماله الشريرة ؛ ويتحدثون عن أسلوب حياته الغريب .. حتى هؤلاء كانوا يكذبون كل ما يسيء إليه حين يرونه ..

كان يبدو دومًا كإنسان لم يلوثه هذا العالم .. مجرد وجوده كان يعيد إلى أذهان الناس الطهر الذي فقدوه ..

وعندما كان يعود لداره بعد إحدى جولاته الغامضة التي تثير الأقاويل ؛ كان يصعد إلى الطابق العلوي

فيفتح الغرفة الموصدة .. ويقف أمام اللوحة وقد وضع مرآة بجوارها .. ويرمق الشر والشيخوخة اللذين زحفا على اللوحة .. ثم يرمق الوجه الغض الأشقر الذى يبادله النظر من وراء المرآة .. عندها يجعله التناقض الحاد يبتسم .. ويزداد إدراكًا لجماله الخاص .. وإدراكًا لخراب روحه ..

كان قد غدا نجم المجتمعات ، وغدت ثيابه المبهرجة الحديثة (موضة) فى حد ذاتها فى أندية (لندن) .. ، كما أنه راح يطالع الأدب بنهم ، فصارت ثقافته مزاجًا من التصوف والدقة العلمية .. وكان له اهتمام خاص بآراء (داروين) فى ألمانيا .. وانبهر بدور المادة — على شكل عصب أو خلية مخ — فى السيطرة على الروح ..

لكن نظريات الحياة لم تثر اهتمامه كما أثارته الحياة ذاتها .. راح يدرس الحواس .. العطور وصنعها ، وراح يحرق الزيوت الشرقية ويفكر فى أنه ما من حالة عقلية لا تعبر عنها العطور .. رائحة الجذور .. ورائحة الصبار .. ورائحة البنفسج .. ورائحة زهر البرتقال ..

أحيانًا كان يدرس الموسيقا .. فكان يؤلف مقطوعات عجيبة كأنما يرقص حولها الغجر أو يقرع الزنوج لها طبولهم .. واقتنى آلات موسيقية غريبة من حضارات غابرة ومن أرجاء الأرض ..

لفترة ما اهتم بالأحجار الكريمة ، وظهر فى حفل أقامه أدميرال فرنسا وهو يرتدى ثوبًا عليه خمسمائة وستون لؤلؤة .. ولقد قضى الساعات يصنف مجموعاته ويقرأ كل شىء عنها .. ويضعها فى علب مخملية ..

ومرّ صيف بعد صيف ، ورددت ليالى الرعب قصة عارها .. لكنه لم يتغير .. لم يأت شتاء يبدل وجهه أو يفسد نضارته ..

الكنوز النادرة تتراكم فى صناديق فى داره .. وفى غرفة الصبا حيث علق الصورة ليتأملها بمفرده .. ويرى فيها التحلل الحقيقى الذى بدأ يطرأ على ملامحه .. كان ينساها لأسابيع ثم يتذكر فيصعد ليراها .. يشعر بالاشمئزاز منها .. ثم يشعر بالتفرد — وهو جزء من جاذبية الآثام — ويبتسم فى سرور ساخرًا من الرسم القبيح الذى يحمل ذنب خطاياه هو ..

كان يخشى طوال الوقت أن يقتحم أحد الغرفة ، ولكم ترك أصدقاءه فى مسراتهم التى تبهر الناس

بيذخها ليهرع إلى داره ليتيقن من أن الباب مغلق بإحكام ، والصورة ما زالت هناك ..

كانت الأقاويل تحيط به في المجتمعات ، وكانت هناك تساؤلات لدى النساء حول سحره غير العادي .. وجماله الذي يبدو أبديًا .. لكن المجتمعات المتحضرة لا تصدق أي حرف يقال عن الأثرياء بارعي الجمال .. وتعتقد أن السلوك المتحضر يكفي عوضًا عن الأخلاق التقليدية .. وفي مجتمعات كهذه يصعب إقناع الناس أن من قدم لهم عشاء متواضعًا أو سقاهم شرابًا رديئًا هو شخص نزيه في حياته الخاصة ..

وراح (دوريان) يتساءل عن الفهم الضحل للإنسان ، لدى أولئك الذين يعتبرون العقل الباطن شيئًا بسيطًا دائمًا موثوقًا به ..

كان يؤمن بأن الإنسان حيوات عديدة وأحاسيس عديدة .. مخلوق غامض يحوي بداخله تركات لا تنتهي من العواطف والآلام ...

★ ★ ★

- ١٢ -

كان هذا هو اليوم التاسع من (نوفمبر) .. عيد ميلاده الثامن والثلاثين كما تذكر فيما بعد ...

كان عائدًا بعد العشاء - الحادية عشرة مساء - من دار لورد (هنري) ، وقد تدثر في الفراء لأن الليل كان باردًا ضبابيًا .. عند ركن ميدان (جروزفينور) مر به رجل في الظلام يجد السير رافعًا ياقة معطفه لأعلى .. وفي يده حقيبة .. تعرفه (دوريان) على الفور .. كان هذا هو (باسيل) الرسام . أحس بخوف لم يستطع تفسيره وابتعد متجهًا نحو داره ..

لكن الرسام رآه ، وسمعه يركض نحوه .. وأمسك بذراعه :

- « (دوريان) ! .. أي حظ ! .. انتظرتك في دارك منذ التاسعة لكنك لم تأت .. أنا ذاهب إلى (باريس) الليلة وأردت لقياك قبل أن أرحل .. ألم تتعرفني ؟ »

- « أفي هذا الضباب يا (باسيل) ؟ كدت لا أميز ميدان (جروزفينور) ذاته .. يؤسفني رحيلك لكني متيقن من عودتك ؟ »

- « سأغيب عن البلاد ستة أشهر .. وأريد أن أخبرك بشيء .. »

قال (دوريان) وهو يصعد في درج منزله ويفتح القفل :

- « هذا سيسرني .. ولكن ألن يؤخرك هذا عن القطار ؟ »

- « بتاتًا .. ما زال أمامي جبل من الوقت .. »

ودخل الرجلان إلى المكتبة حيث كانت النار مشتعلة في المدفأة .. وشرع (دوريان) يقدم لصاحبه الشراب الممزوج بالصودا .. ثم سأله :

- « ترى ماذا هنالك ؟ أرجو ألا يكون الموضوع متعلقًا بي .. فقد سئمت نفسي هذه الليلة .. »

بصوته العميق الهادئ قال الرسام :

- « إنه عنك .. لن يستغرق هذا أكثر من نصف ساعة .. »

ثم أردف :

- « هذا لصالحك .. أظن من حقك أن تعلم أن أبشع الأشياء تقال عنك في (لندن) .. »

- « هذا لا يهمني .. أحب أن أعرف فضائح الآخرين ، لكني لا أعبأ بمعرفة فضائحي .. فهي تفتقر إلى الجدة .. »

- « لكن (الجنتلمان) الحقيقي لا يحب أن يتكلم الناس عنه كشرير منحلّ .. بالطبع إن لديك مركزك الاجتماعيّ وثروتك .. لكنهما ليسا كل شيء .. أنا لا أصدق ما يقال .. فالخطيئة ترسم نفسها على وجه صاحبها .. ولا توجد خطيئة سرية .. لهذا حين أبصر وجهك البريء النقي أوقن ألا صحة لما يقال عنك .. ولكن .. لماذا يقولون هذه الأشياء عنك ؟ ولماذا يغادر رجل مثل دوق (بيرويك) غرفة النادي حين تدخلها أنت ؟ ولماذا لا يدعوك كثير من سادة المجتمع إلى ديارهم ؟ ولماذا يقولون إنه على أية فتاة محترمة ألا تتواجد في مكان أنت فيه ؟ »

صاح (دوريان) محنقًا وهو يعض شفته :

- « كفاك يا (باسيل) كلامًا عن أمور تجهلها .. تقول لماذا يغادر دوق (بيرويك) القاعة ؟ لأنني أعرف كل شيء عن حياته وليس لأنه هو من يعرف كل شيء عن حياتي .. هذه هي إنجلترا .. حيث ينتقد الناس بعضهم لمجرد التظاهر بأنهم أرقى طبقة ومحتدًا .. إنجلترا يا عزيزي هي وطن النفاق .. »

صرخ (هولرود) :

- « لتكن إنجلترا سيئة .. لهذا أردت لك أن تكون جيدًا .. لكن بوسع المرء الحكم عليك من رفاقك .. لقد فقدوا كل إحساس بالشرف أو الخير أو النقاء .. ثم ـ ماهو أسوأ ـ أنا أعرف علاقتك الحميمة بـ (هارى) .. ولهذا السبب وحده ما كان يجب أن تلوث اسم شقيقته .. »

- « حذار يا (باسيل) .. لا تتمادَ .. ! »

- « حين عرفتها لم تكن هناك وصمة أو شبهة إشاعة حولها .. والآن هل توجد امرأة مهذبة واحدة فى (لندن) تجرؤ على المشى معها فى الحديقة ؟ وماذا عن منزلك الريفى ؟ ما الذى يجرى فيه ؟ ولماذا يراك الكثيرون تغادر الحانات القذرة وأوكار الرذيلة فى آخر الليل ؟ كل هذا يقال أمامى ولا أدرى صحته .. كيف أعلم ؟ لابد لى من أن أرى روحك كى أدرك الحق من الباطل ! »

- « ترى روحى ؟ »

قالها (دوريان) بصوت خفيض وهو يجلس على الأريكة ، وقد ابيض وجهه هلعًا .. فردّ (هولورد) بصوت محزون :

- « نعم .. لكن الله وحده يقدر على ذلك .. »

أمسك (دوريان) بمصباح .. وابتسم ابتسامة مريرة .. وقال :

- ستري هذه الليلة عمل يديك .. لماذا لا تراه ؟ لسوف تخبر العالم كله عن ذلك لكن أحدًا لن يصدقك .. تعال معى .. أنت تحدثت كثيرًا عن الفساد والانحلال ، والآن ستلقاهما وجهًا لوجه .. »

كان ثمة فخر فى كل لفظة قالها .. سرور وحشى غمره حين عرف أن هناك من سيشاركه سره .. وأن من رسم صورته سيعانى طوال عمره وزر ما فعل ..

وابتسم .. وفى قسوة قال :

- « هلم إلى الطابق العلوى .. إن لدى مفكرة دونت فيها حياتى يومًا فيومًا .. ولسوف أريكها إن أنت جئت معى .. »

- « سآتى يا (دوريان) .. قد فقدت قطارى ولم يعد ما يدعو للعجلة .. لكنى أريد إجابة واضحة : هل ما يقال عنك حقيقة ؟ »

- « إذن تعال .. وأعدك بأنك لن تقرأ طويلاً فى مفكرتى هذه .. »

* * *



فمدّ (دوريان) يده ليزيح الستار ويلقيه جانبًا ..

بدأ الصعود .. المصباح يلقى ظلالاً خيالية على جدران الدرج .. وريح بعيدة تجعل إحدى النوافذ تقعقع ..

وتناول (دوريان) المفتاح وأولجه فى القفل .. وسأل بصوت خفيض :

- « مصرّ على المعرفة يا (باسيل) ؟ »

- « نعم .. »

- « هذا يسرنى .. » - وبصوت خشن وابتسامة أضاف - « فأنت الرجل الوحيد فى العالم الذى يمكنه أن يعرف كل شىء عنى .. »

دخلا الغرفة .. فهب تيار بارد من الهواء عليهما ، وازداد وهج المصباح فأغلق (دوريان) الباب وراءهما..

لم يكن شىء فى الحجرة يوحى بأن هناك من دخلها منذ أعوام .. كل شىء يغمره الغبار .. رائحة عطن رطبة ..

- « أزح هذا الستار أى (باسيل) لترى روحى .. »

توقف (باسيل) مترددًا غير فاهم .. فمدّ (دوريان) يده ليزيح الستار ويلقيه جانبًا .. صرخة ذعر خرجت

من شفتى الرسام حين رأى فى الضوء الخافت ذلك الوجه المريع على القماش .. شىء ما فى تعبير الوجه ملأه تقززًا واشمئزازًا .. يا رباه ! .. إن هذا هو وجه (دوريان جراى) ..

ما زال بعض الجمال باقيًا فى الرسم .. ولكن من أفسد اللوحة هكذا ؟ مد يده إلى شمعة صغيرة فأشعلها وقربها من الركن الأيسر السفلى ليجد اسمه مكتوبًا هناك ..

هذه دعابة سمجة ! .. هذه ليست لوحته .. لكنها هى ! .. دمه يستحيل فى ثوان من النار إلى الجليد .. ماذا حدث ؟ استدار إلى (دوريان) عاجزًا عن النطق غارقًا فى عرق بارد ..

كان الفتى صامتًا يرقبه وعلى وجهه تعبير من يشاهد مسرحية رائعة .. لا حزن ولا فرح .. فقط حماس المشاهدين ..

قال (دوريان) وهو يتشمم ـ أو يتظاهر بذلك ـ زهرة انتزعها من ياقة سترته :

ـ « منذ أعوام كنت أنا صبيًا .. قابلتنى وعلمتنى معنى وسامتى .. ثم قدمت لى صديقًا شرح لى روعة الشباب .. هنا تمنيت أمنية مجنونة فى لحظة بعينها .. »

ـ « مستحيل .. إن هذه الغرفة رطبة وقد أحدثت الطحالب تأثيرًا كيمائيًا فى الأصباغ .. مما أدى إلى .. ألم تقل لى : إنك دمرت اللوحة ؟ » .

ـ « كنت مخطئًا .. اللوحة هى التى دمرتنى .. »

ـ « أنا لم أرسم هذا .. هذا وجه مسخ .. »

ـ « هذا وجه روحى .. »

جلس الرسام على مقعد هناك ، ودفن وجهه بين كفيه ..

ومن حيث وقف (دوريان) عند النافذة ؛ تعالى صوت نهنهة ..

كان يشعر بمقت لـ (باسيل) .. لم يمقت أحدًا فى حياته كما مقت (باسيل) الآن .. أحاسيس الحيوان المطارد تتحرك فى داخله ..

ورأى شيئًا يلتمع فى الظلام .. سكين نسيها فى هذه الغرفة من سنين .. مشى ببطء نحوها .. وأمسكها ..

كان (هولورد) يحاول النهوض حين انقض عليه (باسيل) ، وغرس السكين فى الوريد الضخم المارّ خلف الأذن ـ وراح يطعن ـ ويطعن ..

صوت أنين .. والصوت المفزع لشخص يشرق بالدماء .. ثم همد الجسد ، وراح شيء ما يتدفق إلى الأرض ..

وقف في الظلام يصغي .. صوت النقاط تتساقط .. تتساقط .. فتح الباب وغادر الغرفة .. فلم يكن ثمة أحد بالخارج ..

عاد ليدخلها ويغلقها على نفسه بالمفتاح من الداخل ..

الرجل ما زال جالسًا على مقعده .. ولولا الخط الأحمر في العنق لبدا لمن يراه كالنائمين ..

كيف تم هذا بسرعة ! .. لقد ولى الرجل الذى رسم الصورة .. وهذا كاف بالنسبة له .. أعاد فتح الباب وأخرج المصباح حتى لا يفتقده الخادم .. هبط في الدرج وخشب الأرضية يصرّ ..

المعطف والقبعة ما زالا في غرفة المكتب .. يجب إخفاؤهما .. ثم يمكن حرقهما فيما بعد ..

إن القوم يشنقون في إنجلترا يوميًا ـ شهريًا ـ سنويًا جزاء على فعلته هذه .. لقد دنا النجم الأحمر من الأرض فأصابه الهوس .. لكن من يعلم بما فعله ؟ الخدم متغيبون ووصيفه غاف الآن .. وكل من يعرف (باسيل) يعرف أنه مسافر إلى (باريس) هذه الليلة

بالذات .. وكل الناس يعلمون أن (باسيل) يتغيب طويلاً بلا تفسير .

ثم إنه ارتدى معطفه وقبعته وغادر الدار .. أغلق الباب برفق خلفه . ثم قرع الجرس .. وبعد خمس دقائق ظهر وصيفه بثياب النوم والنعاس يغالبه ..

قال (دوريان) :

ـ « معذرة لإيقاظك أى (فرانسيس) .. نسيت مفتاحي .. كم الساعة الآن ؟ »

نظر الرجل للساعة ورمش بعينيه :

ـ « الثانية وعشر دقائق بعد منتصف الليل .. »

ـ « ياله من وقت متأخر ! .. تذكر أن توقظني في التاسعة .. هل زارني أحد الليلة ؟ »

ـ « مستر (هولرود) ياسيدى .. مكث حتى الحادية عشرة ثم انصرف .. وقال إنه سيكتب لك من (باريس) .. »

ـ « لا بأس .. والآن اذهب ونم .. »

ثم خلع (دوريان) معطفه وقبعته ودخل إلى المكتبة .. ومن أحد الرفوف أخذ دليل العناوين وراح يقلب الأوراق حتى وجد الرجل الذى يريده :

آلان كامبل ـ ١٥٢ ـ هيرتفورد ستريت ـ ماى فير ..

* * *

- ١٤ -

فى التاسعة صباحًا دخل الخادم غرفته حاملاً قدحًا من الشيكولاتة .. كان (دوريان) نائمًا فى سلام وقد توسد يده اليمنى .. فبدا كطفل أنهكه اللهو .. اضطر الرجل إلى أن يهزه مرتين ليوقظه .. فنهض من نعاس طويل بلا أحلام .. ، وراح يرشف الشيكولاتة وقد بدأ يتذكر ما حدث بالأمس .. نهض ليرتدى ثيابه بعناية كعادته ، موليًا اهتمامًا كبيرًا بربطة العنق ودبوس الوشاح .. وجلس بشهية يلتهم إفطاره ..

ثم إنه جلس ليكتب خطابين طلب من الخادم أن يحمل أحدهما إلى ١٥٢ (هيرتفورد ستريت) ..

وطفق ينتظر قدوم الرجل .. كانا صديقين لا يفترقان منذ خمسة أعوام .. وكان (آلان كامبل) شابًا بارعًا وإن كان لا يتذوق الفنون البصرية ولا يحب الشعر .. لكنه كان يحب العلم .. وقضى وقتًا طويلاً فى معامل (كامبردج) .. ثم قابل (دوريان) فى إحدى حفلات (روبنشتاين) فى دار السيدة (بركشاير) .. وجمعت الموسيقا بين روحيهما ..

ثم بدأ (كامبل) يتغير .. وصار يتجنب (دوريان) دون سبب واضح .. وتضاءل اهتمامه بالموسيقا ..

وإن ظهر اسمه مرة أو مرتين فى المجلات العلمية مقرونًا بتجارب غريبة ..

هذا هو الرجل الذى يحتاج إليه (دوريان) الآن .. لكن متى يعود الخادم ؟ وهنا انفتح الباب ودخل الأخير يعلنه أن مستر (كامبل) ها هنا ..

تنفس (دوريان) الصعداء ، وعاد الدم إلى خديه ..

- « دعه يدخل يا (فرانسيس) .. »

وجاء (آلان) .. كان رجلاً شاحبًا زاد من شحوبه شعره الفاحم وحاجباه الكثان . فما إن حياه (دوريان) حتى قال :

- « ما كنت أرغب فى دخول دارك .. لكن قلت : إنها مسألة حياة أو موت .. »

قالها وأبقى يديه فى جيبى معطفه الاستراخان معلنًا عدم رغبته فى المصافحة . دعاه (دوريان) للجلوس .. ففعل .. والتقت عينا الرجلين ..

مال (دوريان) للأمام وقال وهو يرمق وجه الرجل :

- (آلان) .. فى غرفة بالطابق العلوى يوجد رجل ميت .. ميت منذ عشر ساعات . لا ترمقنى كذا ! .. لا تسألنى من هو ؟

ولا كيف مات ؟ .. ولا لماذا مات ؟ .. أنت الرجل القادر على إنقاذى .. فأنت عالم تفقه فى الكيمياء ..

ويمكنك أن تدمر هذا الجسد الميت .. بحيث لا يبقى منه شيء .. إن الشرطة لن تبحث عنه قبل شهور .. وعندها لا أريد أن تجد منه سوى رماد منثور في الهواء .. »

قال الرجل :

ـ « أنت مخبول .. لا أريد ـ سواء أكان ما قلت حقًا أم زيفًا ـ أن أندمج في شئون حياتك .. فلتبق أسرارك المريعة لك لأنها لا تثير اهتمامي .. »

ـ « كان انتحارًا يا (آلان) .. »

ـ « يسعدني أن أعرف هذا .. لكن من جعله ينتحر ؟! »

ـ « إذن ترفض معاونتي ؟ »

ـ « لا أعبأ بأي عار يصيبك من جراء هذا .. كيف تجرؤ على طلب شيء كهذا مني ؟ يبدو أن صاحبك اللورد (هنري) قد نسي أن يعلمك تقييم الناس ضمن ما علمك .. ولقد اخترت الرجل غير المناسب بالتأكيد .. »

ـ « (آلان) .. أنا مذعور وأتوسل إليك .. هب هذه تجربة علمية تقوم بها .. وهب أنك لا تعرف شيئًا عن موضوعها .. ثم إن هناك نقطة قد تهمك .. ثمة خطاب كتبته إلى شخص معين .. ولسوف أرسله ما لم تساعدني .. لا أحب هذا لكنك لم تترك لي الخيار .. وعاملتني كما لم يجرؤ مخلوق على معاملتي من قبل .. »

شحب وجه (آلان) وارتمى في مقعده ، وداهمه الغثيان ..

كانت الساعة تدق فوق المدفأة كأنها تقسم الزمن إلى ذرات منفصلة من الألم .. ثمة حلقة من الفولاذ تضيق حول جبهته ..

في النهاية قال بعد تردد :

ـ « لكن .. هل هناك نار في تلك الحجرة بالطابق العلوي ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « أريد أن أجلب أشياء من داري .. »

ـ « لا .. اكتب ما تريد على ورقة .. ولسوف يجلب لك خادمي ما تريد »

خط (آلان) بعض سطور على ورقة يرسلها لمساعده ، فقرأ (دوريان) الورقة بعناية ثم استدعى خادمه وطلب منه أن يجلبها له ..

مرت عشر دقائق من الصمت والترقب ، ثم عاد الرجل حاملاً صندوقًا من الخشب مليئًا بالكيماويات ، فسأل (دوريان) (آلان) :

ـ « كم من الوقت تستغرق تجربتك يا (آلان) ؟ »

قالها في لا مبالاة وهدوء .. كأن وجود ثالث في الحجرة وهبه شجاعة غير عادية ..

ـ « خمس ساعات .. »

- « إذن يمكنك إمضاء الأمسية كما تريد يا (فرنسيس) .. فلسوف أتناول عشائى خارج الدار .. »

ثم إنه اصطحب (آلان) إلى الغرفة الرهيبة بالطابق العلوى .. لم يكن ينوى دخول الغرفة لكنه لمح الصورة معلقة فى موضعها .. لقد نسى أن يغطيها بالأمس .. ما سر هذا اللون الأحمر المريع على اليدين وكأن قماش اللوحة ينزف دمًا ؟ كم أن هذا مرعب ! .. مرعب أكثر من الشىء الذى يجلس على المنضدة دون حراك حيث تركه بالأمس ..

هكذا اضطر إلى أن يدخل الحجرة فيعيد الغطاء إلى الصورة .. ثم غادر المكان دون أن ينظر حوله تاركًا العالم يقوم بعمله الرهيب ...

وفى السابعة مساء جاءه (كامبل) .. كان شاحبًا لكنه هادئ تمامًا ... وقال :

- « قد قمت بما طلبت منى .. والآن وداعًا .. لا أريد أن أراك ثانية .. »

قال (دوريان) :

- « قد أنقذتنى من الدمار يا (آلان) .. ولن أنسى هذا.. »

وصعد إلى الحجرة ..

كانت رائحة حمض النيتريك الخانقة تفعم الجو .. لكن الشىء الذى كان جالسًا على المنضدة قد اختفى ..

* * *

- ١٥ -

فى الثامنة والنصف مساء دخل إلى غرفة الرسم الخاصة بالليدى (ناربورو) يقوده حشد من الخدم المنحنين ..

انحنى يلثم كف مضيفته محاولاً تجاهل الأعصاب النابضة ألمًا فى جبهته .. فى الواقع لم يكن بوسع من يراه ليلتها أن يصدق أنه قد اجتاز مأساة مروعة منذ ساعات .. وحتى هو تساءل فى سره : هل حقًّا عرف من يدعى (باسيل هولورد) ؟

كان الحفل الذى تقيمه ليدى (ناربورو) العجوز مملاً حقًّا .. لكنه شعر بسرور حين علم أن (هنرى وتون) مدعو لهذا الحفل .. هذا عزاء كاف .. وحين سمع صوت (هنرى) المميز يعتذر اعتذارًا غير صادق لكنه جذاب عن تأخره ؛ شعر بأن ملله يتلاشى .. لكنه لم يستطع أن يمس طبقًا واحدًا من العشاء ، برغم لوم المضيفة له على (إهانة أدولف الذى أعد القائمة خصيصًا من أجلك) .. لكنه راح يجرع (الشمبانيا) فى نهم وبظمأ متزايد ..

كان (هنرى) يرمقه فى اهتمام .. وفى النهاية سأله :

- « (دوريان) .. ماذا دهاك ؟ تبدو متعكر المزاج تمامًا .. »

قالت الليدى ضاحكة :

- « أظن أن (دوريان) يرغب في أن يتزوج .. ولسوف أجد له زوجة مناسبة »

قال لورد (هنرى) بطريقته المتهكمة :

- « كل رجال العصر لهم مستقبل .. وكل نسائه لهن ماض ! »

ثم إنه استدار ليسأل (دوريان) :

- « لقد تركتنا فى الحادية عشرة أمس .. فهل عدت لدارك ؟ »

حدق فيه (دوريان) وقطب :

- « لا .. لم أعد لدارى إلا فى الثالثة .. »

- « أذهبت للنادى ؟ »

- « نعم .. » - ثم عض شفته - « أعنى .. لا .. مشيت فى الشارع .. أعنى .. أهذا تحقيق ؟ أنا لا أحب تذكر ما أفعله .. »

هز لورد (هنرى) كتفيه :

- « ياعزيزى أنت لست أنت الليلة .. ماذا قد دهاك ؟ »

- « لا عليك .. أنا متوتر وعصبى .. أبلغ اعتذارى لليدى (ناربورو) .. أراك غدًا .. فأنا عائد لدارى »

وفى طريق العودة ضايقه أن الشعور بالذعر الذى غالبه قد عاد إليه .. لقد جعلته أسئلة (هنرى) العابرة يفقد أعصابه ..

أغلق باب المكتب عليه فى داره .. وأخرج قبعة ومعطف (باسيل) من حيث خبأهما .. وألقاهما فى نيران المدفأة ..



- ١٦ -

بدأ مطر بارد ينهمر .. وتبدت مصابيح الدروب وراء الضباب .. ومن بعض الحانات تصاعد صوت ضحك مريع .. وفى أخرى تشاجر السكارى ..

كان (دوريان) جالسًا فى عربة الأجرة ، وقبعته على وجهه .. يرمق عار المدينة العظيمة .. وراح يتذكر كلمات لورد (هنرى) .

- « لاشىء يشفى الروح سوى الحواس .. ولاشىء يشفى الحواس سوى الروح .. »

كانت جحور المخدرات حيث يدخن المدمنون الأفيون تتبدى أمام عينيه .. هناك حيث يتخلص القوم من ذكريات الخطايا القديمة بخطايا جديدة تمامًا ..

القمر يتدلى من السماء كجمجمة صفراء .. ومن حين لحين تغطيه سحابة مشوهة .. والبخار يتصاعد من منخرى الحصان ..

كانت روحه حقًا بحاجة إلى شفاء .. لقد سال دم برىء .. ولم يعد الغفران ممكنًا لكن النسيان متاح .. وهو مزمع أن ينسى .. يهشم الذكرى كما يهشم نملة لدغته ..

الشوارع لا تنتهى .. كأنه نسيج عنكبوت عملاق .. ونبح كلب فى مكان ما .. بينما راحت كلمات لورد (هنرى) تتردد فى ذهنه ؛ وبينما الحاجة الملحة إلى المخدر تحرق أحشاءه ..

وفى أحد الأكواخ الحقيرة كان ما يبغيه .. وقاده رجل خبيث المظهر إلى ما وراء ستار .. هنا سمع ضحكة قبيحة من الشفتين المصبوغتين لإحدى الغوانى .. وبصوت خشن قالت وهى تشير إليه :

- « هى ذى صفقة الشيطان ! »

أجابها :

- « عليك اللعنة ! .. لاتسمينى كذا .. »

- « إذن تحب أن أدعوك بالأمير الجميل ؟ »

هنا توقف .. ذكره الاسم بشىء ما فهرع يغادر المكان مبتعدًا .. وتحت الأمطار راح يفكر فى معنى هذا .. مشكلة الحياة هى أننا نظل ندفع ثمن خطايانا مرارًا .. إن القدر لا يغلق دفاتر حساباته مع الإنسان أبدًا ..

كان يمشى فى الشوارع الضيقة سيئة السمعة حين شعر بمن يجذبه من الوراء .. وقبل أن يدافع عن نفسه شعر بيد خشنة تمسك حنجرته وتثبته إلى الحائط ..

بعناء أبعد اليدين عن جنجرته .. وهنا سمع صوت مسدس ، ورأى لمعة ماسورة السلاح مصوبة إلى رأسه .. ورجلاً قويًا يجابهه ..

قال لاهثًا :

- « ماذا تبغي ؟ »

- « لا تتحرك .. لو تحركت لأطلقت الرصاص على رأسك .. »

- « أنت مجنون .. ماذا فعلت لك ؟ »

- « أنت أفسدت حياة (سيبل فين) .. و (سيبل فين) هى أختى .. بخعت نفسها والذنب ذنبك .. ولقد أقسمت أن أقتلك .. لم أكن أملك أن أجد سبيلاً لك .. لكنى سمعت تلك الغانية تدعوك (الأمير الجميل) وهو الاسم الذى كانت (سيبل) تدعوك به .. والآن أطلب المغفرة من ربك .. »

كاد (دوريان) يقيء من فرط الذعر .. وقال :

- « لم أسمع عنها من قبل .. أنت مخبول .. »

ولم يدر ما يقول .. فقال الرجل :

- « على ركبتيك ! .. أمامك دقيقة واحدة للصلاة .. لا وقت لدىّ لأنى مسافر إلى الهند هذه الليلة .. دقيقة لا أكثر .. »



وقبل أن يدافع عن نفسه شعر بيد خشنة تمسك حنجرته وتثبته إلى الحائط ..

فجأة خطرت فكرة لـ (دوريان) .. فسأل الرجل :

ـ « منذ متى ماتت أختك ؟ »

ـ « ثمانى عشرة سنة .. »

ـ « إذن قرِّبْ المصباح من وجهى .. وانظرْ إلىّ مليًا .. »

تردد (جيمس فين) هنيهة .. ثم قرب المصباح .. وعلى الوهج المتراقص رأى وجه الرجل الذى أراد أن يقتله .. وجهًا يحوى كل نضارة الصبا ونقاء الشباب .. لا يمكن أن يكون أكبر من عشرين عامًا .. بل هو فى سن (سبيل) حين ماتت .. مستحيل أن يكون هو ..

ـ « رباه ! .. لقد كنت على وشك قتلك .. »

تنهد (دوريان) فى عمق وقال :

ـ « كنت على وشك اقتراف جريمة شنعاء يا صاحبى .. ليكن هذا إنذارًا لك من محاولة الانتقام بيديك .. »

غمغم الرجل :

ـ « سامحنى يا سيدى .. لقد خدعت .. »

ـ « إذن أبعد هذا المسدس قبل أن تتورط فى المتاعب »

وبهدوء استدار مبتعدًا .. تاركًا (فين) واقفًا يرتجف من رأسه حتى قدميه .. وهنا دنا ظل منه ليدخل دائرة الضوء .. ووضعت يد على ذراعه .. كانت يد واحدة من نساء الحانة ..

قالت له بصوت كالفحيح :

ـ « لم لم تقتله ؟ كان يجب أن تفعل .. فمعه نقود كثيرة .. وهو سيئ كالسوء نفسه .. »

ـ « لا أريد مالاً .. أريد حياة .. حياة رجل فى الأربعين من عمره الآن .. أما هذا فهو إلى الصبية أقرب .. »

ضحكت المرأة فى مرارة وقالت :

ـ « صبى ؟! لقد كان هذا منذ سبعة عشر عامًا حين صنع منى الأمير الجميل ما أنا عليه ! وأقولها لك أمام الله .. »

ـ « أنت كاذبة ! »

ـ « فليصبنى الخرس إن كنت أكذب .. إنه أسوأ خلق الله قاطبة .. يقولون : إنه باع روحه للشيطان ليحتفظ بوجهه مليحًا .. »

ـ « أتقسمين على هذا ؟ »

قالت بصوت خشن :

ـ « أقسم .. وإننى لأخشاه كثيرًا .. »

تركها وهرع إلى ركن الشارع .. لكن (دوريان جراى) كان قد اختفى .. وحين التفت إلى الوراء وجد أن المرأة اختفت بدورها ..

* * *

- ١٧ -

بعد أسبوع كان (دوريان جراى) جالسًا فى (رويال سيلبى) يثرثر مع دوقة (مونماوث) الحسناء .. وكان زوجها معها .. رجل فى الستين من عمره شاحب الوجه ..

الدوقة تثرثر وتضحك وتنفرج شفتاها الحمراوان عن ابتسامة لشىء همس به (دوريان) فى مسمعها .. وعن كثب جلس لورد (هنرى) يرمقهما .. وبهذا بلغ عدد حضور الحفل اثنى عشر ضيفًا ..

قال الدوقة لـ (دوريان) :

- « إن زوجى يحب جمع الحشرات .. ربما تزوجنى كنموذج جيد لفراشة جديدة .. »

قال (دوريان) ضاحكًا :

- « عساه لا يثبت جسدك بالدبابيس ... »

- « إن وصيفتى تفعل ذلك حين أضايقها .. »

تدخل (هنرى) فى المحادثة بآرائه الجريئة الساخرة المميزة .. فضحكت الدوقة كثيرًا .. وسألت (دوريان) :

- « هل توافق على آراء (هارى) يا (دوريان) ؟ »

- « أنا أوافق (هارى) دومًا .. »

- « حتى لو كان مخطئًا .. ؟ »

- « (هارى) لا يخطئ أبدًا .. ! »

ثم نهض (دوريان) لشأن ما .. وواصل (هارى) الثرثرة مع الدوقة حين سمعا صوت سقطة .. وهب الجميع مذعورين .. وتصلبت الدوقة ، بينما هرع لورد (هنرى) يعبر الغرفة ليجد (دوريان) راقدًا على البلاط ووجهه منكفئ على الأرض ..

حملوه إلى أريكة وشرعوا يحاولون إفاقته .. وأخيرًا فتح عينيه ونظر لمن حوله مذهولاً .. وراح يرتجف ..

قال لورد (هنرى) :

- « لقد أغشى عليك يا عزيزى .. لابد أنك أنهكت نفسك .. سآخذك لدارك »

- « لا .. لا » - قالها وهو ينهض - « لا أريد أن أكون وحيدًا .. »

ولم يدر أحد أنه رأى عبر زجاج القاعة - كمنديل أبيض - وجه (جيمس فين) يرمقه فى اهتمام ..

* * *

- ١٨ -

لم يبرح الدار فى اليوم التالى ، بل مكث فى حجرته يرتجف هلعًا من الموت لكنه - فى الوقت ذاته - غير مكترث بالحياة ..

كان الشعور بالمطاردة يعذبه .. وارتجف لصوت الأوراق الجافة إذ تصطدم بزجاج النافذة .. وحركة الستائر مع الريح ..

لابد أن خياله هو المسئول عما رآه .. لا يمكن لمتسكع أن يحوم حول دار مضيفه دون أن يراه الخدم .. إن أخَ (سيبل) لم يعد لقتله .. إنه الآن فى طريقه إلى الهند ..

ولكن يا لعدالة الخيال ! أية حياة هذه حين تطارده أشباح ضميره وتهمس فى أذنه .. وتوقظه بأنامل باردة إذ يحاول النوم .. ! .

فى النهاية أزمع أن يخرج ليحاول التحرر من مخاوفه .. ذهب إلى نادى الرماية .. كان السير (جيفر كلاوستون) شقيق الدوقة واقفًا يخرج خرطوشين فارغين من بندقيته .. بينما بدت السماء كقدح مقلوب

ن المعدن الأزرق .. وطبقة رقيقة من الجليد تكسو عشب .

وقف (جراى) يرمق المشهد شاعرًا بمتعة الحياة .. أمامه رأى أرنبًا بريًا يبرز من بين الشجيرات .. بت السير (جيفرى) البندقية على كتفه ... لكن شيئًا ما فى حركات الأرنب بهر (دوريان) فصاح :

- « لا تقتله .. دعه يعش ! »

- « يا للسخف ! »

وأطلق الرصاص .. عندها دوت صرختان من بين الأشجار .. واحدة كانت صرخة الأرنب المريعة .. والأخرى كانت صرخة إنسان شنيعة ..

صاح سير (جيفرى) :

- « يا للسماء ! .. لقد أصبت متسللاً .. يا له من جحش إذا يمر أمام مرمى البنادق ! .. كفوا عن الرماية ! »

وهرع الحرس إلى المكان .. فصاح فى رئيسهم بحنق :

- « لمَ لا تقومون بعملكم كما يجب ؟ لقد أفسدتم يومى كله »

ومن بين الأشجار خرج القوم يجذبون جسدًا آدميًا ..
فأدار (دوريان) وجهه وقد شعر أن سوء الحظ يلاحقه أبدًا ..

مرت لحظات بدت كدهر ، ثم شعر أن يدًا توضع على كتفه ..

قال لورد (هنرى) :

- « يجب أن تعلم أن الرماية قد ألغيت اليوم يا (دوريان) .. »

- « ليتها تلغى للأبد .. إن الأمر كله قبيح قاس .. هل الرجل .. ؟ »

- « أخشى هذا .. لقد تلقى الخرطوش بالكامل فى صدره .. هلم نعد للدار .. »

ودون كلمة أخرى مشيا عبر الممر .. بعد برهة تنهد الفتى وقال :

- « هذا فأل سيئ يا (هارى) .. فأل سيئ .. »

تساءل لورد (هنرى) :

- « ما هو ؟ .. آه .. تتكلم عن الحادث كما أفترض .. هذا خطأ الرجل دون شك .. ولن يسبب لسير (جيفرى) سوى بعض الحرج لا أكثر .. »

- « أشعر كأنها نبوءة .. »

ضحك العجوز فى سخرية :

- « لا يوجد شيء اسمه فأل سيئ أو تطير .. إن القدر لا يرسل لنا نواياه أبدًا .. القدر أحكم من هذا أو أقسى .. ثم ما الذى يقلقك وأنت الذى يملك كل شيء فى العالم ؟ »

- « أنا أتمنى مبادلة مكانى مع أي شخص آخر .. إن هذا الفلاح الصريع خير حالا منى .. فالموت لا يرهبنى لكن قدومه هو ما يثير خوفي .. »

- « تبدو لى عصبيًا بشكل مروع هذه الأيام يا (دوريان) وليتنى أفهم السبب .. »

هنا جاءت الدوقة وقد بدا عليها الانزعاج مما فعله أخوها .. وهنا اعتذر (دوريان) لأنه مرهق .. وطلب الانسحاب ..

التفت لورد (هنرى) إلى الدوقة يسألها بعينين ناعستين :

- « أنت تحبينه .. أليس كذلك ؟ »

لم تجب لوهلة .. ظلت ترمق المشهد أمامها ثم قالت :

- « ليتنى أعرف .. »

- « المعرفة تقتل .. إن الضباب هو ما يجعل الأشياء تبدو ساحرة .. »

وفى الطابق العلوى رقد (دوريان) على الأريكة ، والذعر يجتاح كل عضلة فى جسده .. لقد شعر أن مصرع الفلاح هو نبوءة بموته هو .. نادى خادمه ، وطلب منه أن يحزم حقائبه لأنه سيغادر المدينة الليلة .. لن يقضى ليلة أخرى فى (سلبى رويال) .. إنه مكان مشئوم حيث يمشى الموت فى شمس الظهيرة ..

هنا سمع قرعة على الباب .. ودخل الوصيف ليخبره أن رئيس الحرس راغب فى رؤيته ..

ما إن دخل الرجل حتى أخرج (دوريان) دفتر الشيكات من درج مكتبه .. وأمسك بقلم وقال :

– « أحسبك سمعت عن الحادث المؤسف يا (ثورنتون) ؟ »

– « نعم يا سيدى .. »

– « لو كان للرجل أسرة فأنا راغب فى إرسال أى مبلغ من المال لها .. »

– « نحن لا نعرفه يا سيدى .. لهذا جرؤت على طلب مقابلتك .. »

– « غريب ! .. وهل كان معه ما يدل على شخصه ؟ »

– « لا يا سيدى .. لكنه يبدو كبحار يملأ الوشم ذراعيه ، ومعه مسدس ذو ست طلقات .. »

انحنى (دوريان) إلى الأمام وحملق فى الرجل .. وسقط القلم من يده ..

« أين الجثة ؟ أريد رؤيتها سريعًا ! »

وخلال ربع ساعة كان (دوريان) يركض بجواده نحو الإسطبل الذى ترقد به الجثة .. والحجارة تتطاير تحت الحوافر ..

ألقى اللجام لأحد الرجال .. ثم هرع إلى داخل الإسطبل .. وفى ركن المكان كان هناك رجل راقد يرتدى قميصًا خشنًا وسروالاً أزرق .. وثمة منديل يغطى وجهه .. وشمعة تتوهج جوار الجثة ..

أشار لأحد الخدم لكى يعرى الوجه .. ففعلها الرجل .. ونّدت صيحة فرح من حلق الفتى .. لقد كان القتيل هو (جيمس فين) ..

ظل يرمق الجثمان بضع دقائق ..

وفى طريق العودة لداره سالت العبرات من عينيه .. إنه فى مأمن أخيرًا ..

★ ★ ★



وفى ركن المكان كان هناك رجل راقد يرتدى قميصًا خشنًا وسروالاً أزرق ..

- ١٩ -

قال لورد (هنرى) وهو يغمس أصابعه فى سلطانية نحاسية مملوءة بماء الورد :

- « لاجدوى من أن تقول لى إنك ستكون طيبًا .. أنت إنسان كامل .. وادع الله ألا تتغير .. »

هزّ (دوريان) رأسه وقال :

- « كلا يا (هارى) .. لقد ارتكبت أشياء مريعة فى حياتى .. لكنى توقفت الآن وقد بدأت عملى الصالح أمس .. »

- « أين كنت ؟ »

- « فى الريف .. »

ابتسم لورد (هنرى) وقال :

- « يا صغيرى العزيز يمكن أن يكون كل إنسان صالحًا فى الريف .. فلا إغراءات هناك .. فى المدينة يمكن للمرء أن يغدو مثقفًا أو منحلاً .. أما الريفيون فليس الخيار أمامهم .. لذا يركدون .. »

ثم بدأ يلتهم بعض الشليك من طبق .. وسأل :

- « ولكن ما الخير الذى فعلته ؟ »

- « سأخبرك يا (هارى) .. كانت فتاة حسناء .. تشبه (سبيل فين) .. هل تذكر (سبيل) ؟ حسن ..

كانت (هيتى) تشبهها .. لم تكن من طبقتنا فهى مجرد فتاة قروية .. لكننى أحببتها .. وأحبتنى .. وكان المفترض أن تهرب معى فجر اليوم .. لكنى فجأة قررت أن أتركها زهرة يانعة كما وجدتها .. »

- « إذن أنت حطمت قلبها .. وكانت هذه بداية إصلاحك ؟! »

- « (هارى) .. لاتكن مخيفًا ! .. قلب (هيتى) لم يتحطم .. ولم تلوث .. »

ضحك لورد (هنرى) وهو يسترخى فى مقعده :

- « يا عزيزى .. إن لك مزاج طفل .. هل تحسب هذه الفتاة ستقتنع بعد اليوم بأى واحد من طبقتها ؟ إن حبك لها سيعلمها أن تحتقر زوج المستقبل الذى لن يزيد على فلاح أو سائق عربة .. يمكن القول إن هذه ليست بداية طيبة أبدًا .. ثم كيف تعرف أنها ليست طافية الآن فوق مياه بركة وسط زهور السوسن ، مثلما كانت (أوفيليا) بعد انتحارها ؟! »

- « لا أتحمل سخريتك هذه يا (هارى) .. لا يهمنى ما تقول لى ، فأنا سعيد بما فعلت .. لا تحاول إقناعى بأن التضحية الوحيدة بالنفس التى قمت بها فى حياتى هى نوع آخر من الخطايا .. دعنا لا نتكلم عن هذا مرة ثانية .. فكلمنى عن نفسك .. »

- « ما زال القوم يتحدثون عن اختفاء (باسيل) .. لقد ظلوا يتحدثون عن هذا شهرًا ونصف الشهر .. ثم أضافوا لهذا موضوع طلاقى وانتحار (آلان كامبل) .. ، إن اختفاء (باسيل) يحير (سكوتلانديارد) لكنه سيظهر - حتمًا - فى (سان فرانسسكو) .. كل المختفين يظهرون فى (سان فرانسسكو) ولا أدرى السبب .. لابد أنها مدينة جذابة .. »

ثم غمغم فى شرود :

- « مسكينة يا (فكتوريا) ! .. لكم أفتقدك ! إن الزواج عادة .. عادة سيئة .. لكن المرء يفتقد حتى عاداته السيئة حين يحرم منها .. وقد صار بيتى مكانًا موحشًا حقًا .. »

نهض (دوريان) إلى البيانو وراح يداعب العاج الأبيض والأسود فوق المفاتيح .. ثم تساءل :

- « (هارى) .. ألم يخطر لك أن هناك من قتل (باسيل) ؟ »

- « لقد كان (باسيل) أقل مهارة من أن يحظى بأعداء .. إنه موهوب لكن ممل .. ممل حقًا . وأنا أعرف أن هناك أماكن رهيبة فى (باريس) لكنه ما كان ليذهب إليها .. فهو رجل بلا فضول .. »

- « وماذا لو قلت لك : إننى قتلت (باسيل) ؟ ! »

- « أقول لك : إنك تتقمص شخصية ليست لك .. كل الجرائم سوقية كما أن السوقية جريمة .. إن الجريمة تمثل للطبقات المنحطة ما تمثله الفنون لنا .. وكل شىء يغدو ممتعًا حين تكرره لكن الجريمة عمل خاطئ .. وعلى المرء ألا يفعل شيئًا لا يستطيع أن يتكلم عنه بعد العشاء .. ، لقد تدهور مستوى (باسيل) بعد ابتعاده عنك ، وصار رسمه مزيجًا من النوايا الحسنة والفن المتواضع .. مما يؤهل (باسيل) كى يصير رسامًا بريطانيًا مشرفًا ! .. »

ثم أرجع رأسه للوراء .. وأغمض عينيه قائلاً :

- « اعزف لى شيئًا من (شوبان) يا (دوريان) .. وفى أثناء العزف قل لى سر شبابك الدائم .. إننى أكبر منك بعشر سنوات لكنى مرهق متجعد .. لكنك لم تشخ قط .. كأنك أنت كما رأيتك أول مرة .. أخبرنى بسرك يا (دوريان) فأنا أدفع أى ثمن كى أعود شابًا .. لكن لا تطلب منى أن أصحو مبكرًا أو أمارس الرياضة أو أصير محترمًا .. الشباب ! .. لا شىء كالشباب .. »

ثم أردف وهو يتأمل الفتى :

- « يسرنى أنك لم تصنع شيئًا قط .. لم تنحت تمثالاً أو ترسم لوحة أو تخلق أى شىء خارج نفسك .. كانت الحياة هى فنك الوحيد .. إن أيامك هى (السوناتات) التى قمت بتأليفها ! »

كف الفتى عن العزف وقال :

- « لن أعيش ذات الحياة يا (هارى) .. »

- « لماذا كففت عن العزف ؟ أترى هذا القمر بلون العسل فى السماء ؟ إنه فتاة جميلة تنتظر أن تفتنها بعزفك .. عندها ستدنو من الأرض أكثر .. ألن تعود للعزف إذن ؟ »

قال بحزن :

- « إنها الحادية عشرة .. وقد حان ميعاد النوم .. فأنا مرهق .. »

ثم أردف وهو يمشى فى الغرفة :

- « (هارى) .. أنت سممت حياتى يومًا بكتاب معين .. عدنى ألا تقرض هذا الكتاب لأى مخلوق .. فهو كتاب مؤذ .. »

- لا يوجد كتاب مسموم .. فالفن لا يؤثر على الأفعال .. بل هو يحبطها .. ولكنى أراك قد صرت واعظًا تنهى الناس عن الآثام التى مللتها .. عدنى بأن أراك غدًا فى الحادية عشرة .. »

تنهد (دوريان) وتمنى له ليلة سعيدة ، واتجه نحو الباب ..

★ ★ ★

- ٢٠ -

ليلة جميلة كانت .. دافئة لدرجة أنه تخلص من معطفه ولم يربط المنديل الحريرى حول عنقه ..

كان عائدًا للدار يدخن لفافة تبغ ، حين سمع رجلاً يهمس لصاحبه :

- « هذا هو ذا (دوريان جراى) .. »

تذكر أن ما راق له فى القرية هو أن أحدًا لا يعرفه .. الفتاة التى أحبها هناك لم تكن تعرفه .. وحين قال لها : إنه (آثم) ضحكت وقالت : إن الآثمين يكونون شيوخًا قباح الوجوه .. ما أشد براءتها وما أجملها ! .. لم تكن تعرف لكنها كانت تملك كل شىء فقده هو ..

فى الدار جلس على الأريكة يفكر .. أحقًا من العسير أن يتغير المرء ؟ .. كم يشعر بحنين لطهر صباه ! .. صباه الأبيض كزهرة كما وصفه لورد (هنرى) يومًا .. لكم من حيواتٍ أفسد وكم من نفوس عذب .. ! .. لقد أفسده جماله الدائم .. لو كان وجهه كوجوه البشر يحمل آثار خطاياه لكان هذا أفضل .. لربما خفف هذا من حدة اندفاعه قليلاً .. لربما كفر عن خطاياه بعض الشىء ..

لكنها الصورة اللعينة .. الصورة التى جلبت كل هذا الوبال ..

حياة جديدة ! .. هذا هو ما يريد .. وقد بدأها بالفعل فأنقذ روحًا طاهرة .. ولن يحاول إغراء الطهر بعد اليوم ..

ولكن ماذا عن الصورة ؟ أتراها قد تبدلت ؟ بالتأكيد لم تعد مريعة كما كانت .. ما دامت حياته قد صارت طاهرة بلا آثام ..

صعد إلى الطابق العلوى ليتفحص اللوحة .. من اليوم لن تظل رعبًا يطارده ويداريه عن العيون .. وأزاح الستار..

صرخة لم ندت عنه حين رأى الصورة .. لم تتغير .. بل زادت لمحة خبث فى العينين ومسحة نفاق حول الشفتين.. إن الشىء صار أقبح مما كان لو كان هناك أقبح ..

أترى الخيلاء والعبث هما ما دفعه للقيام بعمله الصالح هذا؟ أم هى غريزة التمثيل التى تجعلنا أحيانًا نقوم بأشياء أنبل من طباعنا ؟ ولماذا تبدو اللطخة الحمراء على اليدين أكبر ؟ لماذا تبدو الدماء كأنما تتساقط منهما على الأرض ؟

أتطالبه الصورة بالاعتراف بمقتل (باسيل) ؟

ومن سيصدقه لو تكلم ؟ ..

لا يوجد دليل ضده سوى الصورة ذاتها .. ولسوف يدمرها .. لماذا احتفظ بها كل هذا الزمن ؟ لقد لعبت دور الضمير بالنسبة له ..

نظر حوله فرأى المدية التى طعن بها (باسيل) .. لقد قتلت الرسام .. ولسوف تقتل الرسام ذاته الآن .. ستقتل الماضى .. وعندها يكون آمنًا ..

ودون تردد طعن اللوحة ..

كانت هناك صرخة .. صرخة ألم مريعة جعلت الخدم يهبون من نومهم .. وتوقف رجلان يمران فى الميدان ونظرا إلى البيت .. ثم ناديا رجل شرطة .. فراح يقرع الجرس مرارًا دون إجابة ..

وفى داخل الدار هرع الخدم إلى الغرفة بالطابق العلوى .. وتمكنوا من اقتحام الباب الموصد ..

وفى الداخل وجدوا صورة رائعة لسيدهم كما اعتادوا أن يروه .. بكل جماله وسحره ..

وعلى الأرض كان رجل ميت قد انغرست مدية فى صدره .. كان وجهه مجعدًا كريهًا .. حتى عجزوا عن معرفة شخصيته ..

فقط حين رأوا الخاتم فى يده عرفوا من هو ..

أوسكار وايلد ١٨٩١

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعباسية

القاهرة ـ ☎ ٢٨٢٣٩٢١ ـ ٢٨٢٥٥٢٤